روايات مصرية للجيب

رجل المستحيل

القراصنة

129

د. نبيل فاروق

باسل

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

رجل المستحيل

129

القراصنة

• المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر •



د. نبيل فاروق

رجل المستحيل
سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

129

الثمن في مصر ... وما يعادله بالدولار في سائر الدول العربية ...



القراصنة

- ما مصير (أدهم) ، وهو يواجه وحوش البشر والأدغال ، في قلب (كومانا) ؟!
- من هو السيد (X) الغامض ، الذي يدير أقوى منظمة جاسوسية حرة في التاريخ ؟!
- ترى هل ينجو (أدهم صبرى) هذه المرة أم ينتصر (القراصنة) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل بعقلك وكياناتك مع الرجل .. (رجل المستحيل) .



العدد القادم : محيط الدم

٣٧٩٩

رجل المستحيل

(أدهم صبرى).. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١).. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكّر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١ - ظلام الموت..

فرك مدير المخابرات العامة المصرية عينيه فى إرهاق بالغ، وتثاءب متعبًا، قبل أن يلقى نظرة على ساعته، التى أشارت عقاربها إلى العاشرة والنصف صباحًا، ثم يلتقط ذلك التقرير العاجل، الذى أرسله رجل المخابرات (إبراهيم) من (كوماتا)، وغمغم محدثًا مساعده الشاب:

- الأمور تطوَّرت كثيرًا فى (فنزويلا).. (يارون دزرائيلى)، شقيق (موشى)[*]، اقتحم العملية، بكل قوته وغضبه، ورغبته القديمة فى الثأر من (أدهم)، و(نادية) و(جيهان).. إصابتهما بالغة الخطورة، حتى لقد استدعى الأمر طائرة خاصة، لنقلهما إلى إحدى المستشفيات التابعة لدونا (كارولينا) فى (نيويورك)، ولقد أصرَّت (منى) على أن تحمل الطائرة نفسها

(*) راجع قصة (الضربة القاصمة).. المغامرة رقم ١٠٠

الزنجى (بترو) ـ تابع (أدهم) ، منذ عملية (ممر الموت)(*) ، لعلاجه هناك أيضًا ، كما أن (خالد) مصاب أيضًا ، ويتم علاجه تحت إشراف أحد أطبائنا فى (كراكاس) ، وهذا يعنى أنه لم يعد لدينا سوى (منى) و(إبراهيم) فى (كومانا) ، والأخير يقول : إنه قد تم رصد انفجارات ونيران مشتعلة ، فى الأدغال هناك .

هتف مساعده فى حماس :

ـ ربّاه ! أمِنَ الممكن أن ...

قاطعه المدير فى حزم :

ـ أكاد أجزم بهذا .

ثم نهض من خلف مكتبه ، واتجه إلى النافذة ، ووقف عاقدًا كفيه خلف ظهره أمامها ، وعقله يسبح بعيدًا ..

عند البداية ..

ولكن أية بداية ..

أهى تلك المغامرة ، التى واجه فيها (أدهم) أقوى أربعة من عمالقة الاقتصاد فى العالم ، والذين جمعتهم

(*) راجع قصة (بلا رحمة) .. المغامرة رقم ١١٥

(سونيا جراهام) ، ونظمتهم ، ودفعتهم إلى تمويل كل مشروعات السنيورا ، التى سعت عبثًا للسيطرة على العالم(*) ؟!

تلك المغامرة ، التى انتهت باختطاف (قدرى) .. ونقله إلى أسوأ مكان فى الكون ..

(إسرائيل) ...

أم أن البداية كانت هناك ، فى قلب أرض العدو ، التى ذهب إليها (أدهم) ، فى محاولة لاستعادة خبير التزييف والتزوير الأوّل ، وصديق عمره الوحيد(**) ؟!

أم أنها قد كتبت خطواتها الأولى الحقيقية ، فى أدغال (كومانا) ، التى قاتل فيها (أدهم صبرى) كالأسد ؛ لمنع الإسرائيليين من تدمير قمرنا الصناعى الأوّل (نايل سات) ، وتحطيم فرصتنا فى اللحاق بركب القرن الحادى والعشرين(***) ؟!

(*) راجع قصة (الأربعة الكبار) .. المغامرة رقم ١١٨ .

(**) راجع قصة (الأصابع الذهبية) .. المغامرة رقم ١٢٢

(***) راجع قصة (عملية النيل) .. المغامرة رقم ١٢٥

كلاً .. البداية الحقَّة أتت فى نهاية تلك العملية الأخيرة ، وبعد أن انتصر (أدهم) ، ومنع الإسرائيليين من تحقيق هدفهم القذر ، و ...

واختفى ..

اختفى تمامًا ، دون أدنى أثر ..

فى قلب أدغال (كومانا) ..

ذلك الاختفاء الغامض ، الذى فجَّر حيرة بلا حدود ، وأطلق موجة من التساؤلات والقلق ، بلغت الحد الذى دفع (منى) و(جيهان) و(نادية) إلى الانطلاق بلا إبطاء ، للّحاق برجال المخابرات المصرية فى (كومانا) ، والانضمام إليهم فى عملية البحث عن الرجل ..

رجل المستحيل ..

ذلك البحث الذى اشترك فيه رجال (الموساد) ، والمخابرات المركزية الأمريكية ، ورجال الأمن فى (فنزويلا) ..

وحتى الغامضة (كلارا فلورانس) ، والشهيرة دونا (كارولينا) ، زعيمة منظمة (المافيا) الفاتنة ..

ولكن كل هؤلاء فشلوا فى العثور على أدنى أثر للرجل ..

لقد اختفى تمامًا ، فى قلب أدغال (كومانا) ، كما لو أنه قد تلاشى مع قوة انفجار قاعدة الصاروخ الإسرائيلى ..

والواقع أن البحث فى كل شبر من الأدغال ، لم يكن ليسفر قط عن العثور على (أدهم صبرى) ..

هذا لأن (أدهم) لم يكن فى الأدغال ..

بل تحت الأدغال ..

كان داخل وكر سرِّى غامض ، أقامته منظمة جاسوسية جديدة ، وزوَّدته بكل ما يكفى لعلاجه من إصاباته ..

دون أن يفهم أحد لماذا ؟!

وما الهدف من وراء بذل كل الجهد والمال ، فى سبيل إنقاذه من الموت ؟!

لا أحد يدرى ..

أو يفهم ..

أو حتى يتخيَّل ..

فمنظمـة (إكس) الغامضـة هـذه ، بـدأت إعـلان وجودها بضربتيـن عنيفتيـن للغايـة ، استولت فـى إحداهما علـى غوَّاصـة نوويـة روسـية ، وفـى الثانيـة على النمـوذج الكـامل الوحيـد للمقـاتلة الأمـريكيـة (الشـبح ٣) أقــوى مقـاتلة نفـاثة ، منـذ بـدأ عصـر الطيـران(*) ، وأوَّل طـائرة مـزوَّدة بتسـليح ثـابت ، مـن الصـواريـخ ذات الـرءوس النـوويـة المحـدودة ..

(*) الطيران : اصطلاح يشمل كل أنواع النشاط الجوى ، كبنـاء الطـائرات وصيانتهـا ، وبنـاء المطـارات ، ومـدارس الطـيران ، والخدمـات الجويـة ، والدراسـات الخاصـة بهـا ، ويعـدّ (ليونـاردو دافنشى) أوَّل من قام بتجـارب وبحوث علميـة عن الطيران ، فـى القرن الخامس عشر ، ثم أعقبه (جورج كيلى) ، عام ١٨٠٩م

ثم استخدم (صمويل لانجلى) أوَّل طائرة بمحرك بخارى ، عـام ١٨٩٦م ، ولكن عصر الطيران الحقيقى يبدأ بـأوَّل محاولـة طـيران ناجحة ، لطائرة أثقل من الهـواء ، على يد الأخوين (رايت) ، عـام ١٩٠٣ ، وحتى أوَّل عملية نقل جوية آمنة للركاب ، عام ١٩٣٠م

وبينمـا تـدور عمليـة البحث عن (أدهـم) ، كـانت منظمة (إكس) تثبت أقدامها أكثر وأكـثر ، فـى عـالم العنف والإجرام ..

وكوسيلة للضغط ، وإعلان الوجـود ، أطلقت رأسًا نوويًّا محـدودًا على معسكر يبعـد مائة كيلومتر عن (موسكو) ، واستولت على أموال ومجوهرات ركَّاب بـاخرة الأثريـاء (كويـن إليزابيث) ، ثم علـى ناقلـة بترول مصرية فى النهاية ..

وكان على العـالم أن يتحـد ، لمواجهـة ذلك الخطـر الجديد ..

الخطر ، الذى يحتاج إلى رجل مثله ..

إلى (أدهم صبرى) ..

رجل المستحيل ..

الرجل ، الذى قاتل فى براعة منقطعة النظير ، ليفرّ من الوكر الإليكترونى ، الذى سجنه فيه مسـتر (X) ، زعيم المنظمة الغامضة ، الذى لم يره أحد قط ..

وعلى الرغم من وسائل الأمن الإليكترونية المعقَّدة ،

وفريق الحراسة الشرس ، بقيادة سفاح الصرب ، الجنرال (جيم بولارد) ، نجح (أدهم) فى الفرار ..

نجح فى نفس الوقت ، الذى ظهر فيه (يارون حاييم دزرائيلى) فى الصورة ، وراح يقاتل (منى) و (جيهان) و (نادية) و (بترو) ، فى شراسة منقطعة النظير ..

ومع سقوط الجميع ، باستثناء (منى) ، كان (أدهم) ينطلق ، بكل تعبه وتهالكه وإصاباته ، فى أعماق الأدغال ..

أدغال (كوماتا) ..

ولكن هذا لم يكن يعنى نهاية المعركة ..

بل بدايتها ..

لقد انطلق السفاح (بولارد) وزبانيته خلفه ..

وانفتحت أبواب الجحيم ..

انفتحت بحق ، حتى أحاطت ألسنة اللهب به ، فى قلب الأدغال ..

ثم واجهه (بولارد) ورجاله بوحشيتهم، وشراستهم..

وقنابلهم ..

ومع دوىّ الانفجار ، طار جسده فى الهواء ، ليسقط فى قلب المستنقع ..

مستنقع وحشى ، من مستنقعات الأدغال ، بكل ما يزخر به من تماسيح ضخمة ، وثعابين كبيرة ، و ...

وموت يتربَّص بالجميع ، فى كل ركن ..

وكل ذرة ماء ..

وبينما انطلق (بولارد) ورجاله ، للبحث عنه ، فى قلب المستنقع ، كان هناك ثعبان ضخم ، يلتفّ حول ساقه ، ويجذبه إلى الأعماق ..

حيث الظلام ..

ظلام الموت(*) ..

* * *

(*) لمزيد من التفاصيل ، اقرأ الجزأين ، الأول والثانى .. (نقطة الضعف) و (الصحوة) .. المغامرتين رقمى ١٢٧ و ١٢٨

انعقد حاجبا (كـلارا فلورانـس) ، وهـى تطـالع الكلمات ، التى ارتسمت على شاشـة جهاز الكمبيوتـر النقـال الخـاص بهـا ، ولـوَّحـت بذراعهـا ، قـائلـة فى حنق :

ـ نيـران وانفجـارات فى قلب الأدغـال ؟! ما الذى يفعله أولئك الأوغاد هناك بالضبط ؟!

نهضـت مـن مقعدهـا ، والتقطـت منظـارًا مقرِّبـًا ، واتجهت إلى شرفة تلك الفيلا الأنيقـة ، المقامـة فوق ربوة عالية ، فى مواجهـة أدغـال (كومانـا) ورفعت المنظـار إلى عينيهـا ، وراحـت تراقـب الأدغـال فى دقـة ..

ثم انعقد حاجباها فى شدّة ..

فالأمر لم يكن يحتاج حتى إلى الدقّة ..

النيـران كـانت أشبه ببقعـة مضيئـة ، وسط سـطح شديد السواد ..

(*) حقيقة علمية .

فحتى السيجارة المشتعلة ، يمكن رؤيتها مـن علـى بعد مئات الكيلومترات ، من قلب الظلام(*) ..

فما بالك بالنيران ؟!

وعندمـا خفضـت المنظـار المقـرِّب عـن عينيهـا ، أدركت أنها تستطيع رؤية النيران فى وضوح ..

وكذلك كل سكان (كومانا) ..

وهذا يعنى أن سلطات الأمن ستتحرَّك حتمًا ..

وكل من يهمه أو يعنيه الأمر ..

والرابح هو من يتحرَّك حتمًا ..

التقى حاجبـاهـا ، وهـى تـدرس الأمـر فى سـرعة ودقّـة ، و ...

« سيِّدتى .. » ..

قاطعهـا صـوت (رونـالدو) ، حارسـها الخـاص ، فالتفتت إليه فى حدة ، هاتفة :

ـ كيف دخلت إلى هنا ؟!

ارتبك الشاب ، وبدا مظهره مضحكًا ، وهو يتراجع

أمامها مذعورًا ، بحجمه الضخم وعضلاته المفتولة ، وهو يغمغم :

ـ سيِّدتى .. إننى لم ...

قاطعته فى شراسة :

ـ لماذا لم تطرق الباب ؟!

لوَّح بذراعه ، قائلاً :

ـ لقد فعلت .. ولكننى لم أتلقَّ جوابًا .

تطلَّعت إليه بدهشة حقيقية لبضع لحظات ..

هل فعل حقًّا ؟!

هل طرق الباب ؟!

كيف لم تسمعه ؟!

أو تشعر حتى به ؟!

أيمكن أن يستغرقها غضبها وحنقها إلى هذا الحد ؟!

هل يمكن أن يحدث هذا حقًّا ؟!

هل ؟!

أحنقها هذا الأمر التافه طويلاً ، حتى إنها سألته فى عصبية ، تفوق أى حد منطقى :

ـ ماذا تريد ؟!

وقبل أن تنفرج شفتاه ليجيب ، استدركت فى حدة أكثر :

ـ أتعشَّم أن يكون سببًا يستحق هذا .

ازدرد الشاب لعابه فى صعوبة ، ليغمغم :

ـ إنه هنا .

أصابها جوابه برجفة عجيبة ، لم تدر لها سببًا ، فعزتها إلى توترها العصبى الزائد ، وهى تسأله :

ـ من هو ؟!

لوَّح بإبهامه مجيبًا :

ـ سنيور (مانتراك) .. (جوزيف مانتراك) .. المحامى .

انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تهتف :

ـ هنا ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وغمغم فى توتر :

ـ نعم .. هنا يا سيِّدتى .. لقد تصوَّرنا أنه سيعود

أدراجـه ، عندمـا تحدثـت إليـه مـن الهليوكوبـتر ، متظاهرًا بأننى داخل تلك الفيلا فى (كراكس) ، ولكن من الواضح أنه قد كشف اللعبة بوسيلة ما ، ولحق بنا إلى هنا .

حدقت فيه بضع لحظات ، قبل أن تقول فى عصبية زائدة :

ـ ولكن كيف وصل إلى هنا ؟! أعنى إلى هذا المنزل ؟! إننى أستأجره منذ عام كامل ، باسم (مادلين أوهارا) ..

هزَّ (رونالدو) رأسه ، مغمغمًا :

ـ إنه محام ، ولديه أساليبه حتمًا .

ألقت نظرة متوترة على عقارب ساعتها ، التى أشارت إلى الرابعة والنصف ، بعد منتصف الليل ، وقالت فى حدة :

ـ يا للوغد !

ثم ألقت منظارها المقرَّب فوق أريكة بعيدة ، مضيفة :

ـ دعه يدخل .

غمغم (رونالدو) :

ـ أمرك يا سيدتى .

لم تمض دقيقة واحدة ، على قوله هذا ، حتى كان (مانتراك) يدلف إلى حجرتها ، وهو يحمل ابتسامة ظافرة ، قائلاً بأسلوبه اللزج :

ـ مساء الخير يا أميرتى .. أعنى صباح الخير ، فالفجر سيشرق بعد ساعة واحدة فحسب .

أشعلت سيجارتها فى توتر ، وهى تسأله :

ـ كيف وصلت إلى هنا يا (جوزيف) ؟!

أشار بيده ، هاتفًا فى حماس مصطنع :

ـ بأسرع وسيلة ممكنة يا أميرتى .

ثم لوَّح بسبَّابته وإبهامه ، مضيفًا :

ـ المال .

انعقد حاجباها فى توتر ، فقهقه ضاحكًا فى ظفر ، قبل أن يتابع بنفس الحماس المفتعل :

- فمن الخواص العجيبة للمال ، أنه المفتاح الوحيد فى الكون ، الذى يمكنه فتح الأبواب فى الاتجاهين ، وإغلاق الأفواه وفتحها ، وكتمان الأسرار وكشفها .. إنه العلاج الوافى الشافى ، لكل أسرار الدنيا يا أميرتى .

نفثت دخان سيجارتها فى قوة وعصبية ، وهى تجلس على أقرب مقعد إليها ، وتضع إحدى ساقيها فوق الأخرى ، فاستطرد بلهجة ظافرة :

- بوساطة هذا العقار السحرى ، مع الاستعانة بصورة صغيرة ، حصلت عليها سرًا ، فى أثناء أحد لقاءاتنا ، انفتحت الأفواه المغلقة ، وأبلغنى بعضهم أن (كلارا فلورانس) ، التى أتعامل معها منذ فترة طويلة ، هى فى حقيقة الأمر سيِّدة الأعمال الشهيرة الغامضة (مادلين أوهارا) ، التى تشعر بحنينٍ عاطفى عجيب إلى الأدغال ، حتى إنها ابتاعت منزلاً متميِّزًا ، يطل على كل أدغال (كومانا) .

ثم مال نحوها ، مضيفًا :

- ومنذ عام كامل .

انعقد حاجباها أكثر ، وهى تنفث دخان سيجارتها ، فتراجع ، قائلاً فى صرامة :

- أتدرين ما يعنيه هذا ؟!

تجاهلت سؤاله تمامًا ، فتابع فى حدة :

- يعنى أن ما تخططين له ، أيًّا كان ، ليس أمرًا يتعلَّق بالأحداث الأخيرة فى (كومانا) .

ثم عاد يميل نحوها ، مضيفًا :

- بل ربما كان الأمر الذى أدَّى إلى حدوثها .

صمتت طويلاً ، وكلاهما يتطلَّع إلى عينى الآخر مباشرة ، قبل أن تقول فى تحد ثابت عجيب :

- عظيم .

تراجع ، هاتفًا :

- ليس بعد يا أميرتى .. لا تتسرَّعى بالثناء على عبقريتى ، فما زالت جعبتى تحوى الكثير .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى صرامة :

- وخاصة فيما يتعلَّق بحقيقة هويتك .

قالت فى بطء :

ـ كانت عبقرية منك أن تدرك أننى (مادلين أوهارا) .

ارتفع أحد حاجبيه ، وهو يهتف :

ـ حقًا ؟!

حمل هتافه نبرة ساخرة واضحة ، ثم قهقه ضاحكًا فى قوة ، ارتجَّ معها جسده كله ، وانعقد لها حاجباها فى شدة ، قبل أن يقول :

ـ (مادلين أوهارا) ؟! هراء ؟! إنه واحد من الأسماء العديدة ، التى حملتها عبر الأعوام الماضية يا عزيزتى ، أما الحقيقة ، التى كشفت عنها تحرياتى واتصالاتى ، مع صورتك الجميلة ، فهى أن اسمك الحقيقى يحمل لقب (جراهام) .

وعاد يميل نحوها ، قائلاً فى صرامة أكثر :

ـ (سونيا جراهام) .

لم يكد ينطق الاسم ، حتى سمع ذلك الدوى المكتوم ..

وجحظت عيناه ، وهو يحدِّق فى ذلك الثقب ، الذى يتصاعد منه الدخان ، فى معطفها المنزلى الخفيف ،

مع الألم الشديد ، الذى شعر به فى معدته ، وهى تنهض من مقعدها فى هدوء ، قائلة :

ـ رائع يا (مانتراك) .. لقد تفوَّقت على نفسك حقًا هذه المرة .

أمسك معدته فى ألم ، وهو يسقط على ركبتيه، محاولاً منع الدماء ، التى تتدفَّق من إصابته فى غزارة ، وهى تخرج المسدس من جيب خفى فى معطفها ، وتنفث دخان سيجارتها فى هدوء ، متابعة :

ـ المشكلة أنك قد تجاوزت الحدود المسموح بها ، من فرط حماسك وزهوك .

قال فى ألم ، وهى تتجه نحوه فى هدوء :

ـ أنا محاميك .. لا يمكنك أن ...

قاطعَته فى سخرية :

ـ لا يا عزيزى (مانتراك) .. لا تتجاوز الحدود أكثر وأكثر .. لا تقل إنه هناك أمر أعجز عن فعله .. كل شىء فى الوجود يمكن القيام به ، ما دمت تمتلك القدرة على هذا .

هزَّ رأسه فى رعب ، قائلاً :

ـ الرحمةَ يا سيِّدة (سونيا) .. إننى لم أقصد ..

قاطعته مرة أخرى :

ـ لا تستهلك قوتك فى التحدُّث يا (مانتراك) .. اصمت يا رجل .. أنت تتحدَّث طيلة عمرك .. اصمت فى هذه اللحظات .

انهار ، هاتفًا :

ـ الرحمة .

أجابته فى سرعة :

ـ بالتأكيد .. أنت تحتاج إلى مساعدة .

تمتم ، وآلامه تتضاعف :

ـ لقد ساعدتُك كثيرًا .

قالت فى هدوء :

ـ بالتأكيد .

ثم هتفت :

ـ (رونالدو) .

أسرع إليها حارسها الخاص ، هاتفًا :

ـ أمرك يا سيِّدتى .

استدارت تمنح (مانتراك) ابتسامة عذبة ، قبل أن تلتفت إلى (رونالدو) ، قائلة :

ـ الق هذه القمامة فى الخارج .

ثم أدارت فوهة مسدسها إلى رأس (مانتراك) ، مستطردة فى شراسة مباغتة :

ـ وأشعل فيها النيران ..

صرخ المحامى :

ـ لا .. أر ...

قبل أن يتم عبارته ، انطلقت رصاصتها تنسف رأسه ، فهَوى كالحجر، فى حين هتفت هى فى حنق :

ـ مزعج حتى فى موتك يا (مانتراك) .. دماؤك أغرقت معطفى الحريرى كله .. سأضطر إلى تغيير ثيابى كلها .

قالتها ، ثم عادت تلتقط منظارها المقرِّب ، وتتجه نحو الشرفة ، وكأنما لم يعد الأمر يعنيها ، وهى تقول :

- (رونالدو) .. مر الرجال بإعداد الهليوكوبتر للإقلاع ، وأجر اتصالك بالطائرة الطبية فى (كراكاس) ، وأبلغهم أن يستعدوا .

ورفعت المنظار إلى عينيها ، مضيفة فى حزم :

- قلبى يحدثنى أننا سنرحل قريبًا .. قريبًا جدًا ..

ومن بعيد .. كانت نيران الأدغال تخبو وتخبو .. مفسحة المكان للظلام ، الذى عاد ينتشر كالسيل .. أو كالموت .

* * *



٢ - الأعماق ..

على الرغم من أن (أدهم) كان يدرك جيِّدًا ، حتمية وجود بعض المخلوقات المتوحشة ، فى أعماق المستنقع ، إلا أن هجوم ذلك الثعبان الضخم قد باغته حقًا .

لقد التفَّ بغتة حول ساقه اليسرى ، وجذبه إلى القاع ، قبل حتى أن يلتقط أنفاسه ، ثم انقضَّ يحاول اعتصار عنقه ، وتحطيمه ، كما يفعل مع فرائسه فى المعتاد ..

وكان الظلام حالكًا فى الأعماق ..

إلى حد لا يمكن تصوّره ..

ظلام دامس حالك ، يفوق ما يراه العميان ..

ولكن (أدهم) شعر بانقضاضة الثعبان ..

أو توقّعها .

المهم أن يديه تحركَتا فى سرعة ، لتقبضا على عنق الثعبان الضخم .. فى نفس لحظة انقضاضه ..

لم يدر حتى كيف أصاب الهدف ..

ولا كيف حدَّد عنق الثعبان ، وسط هذا الظلام ..

ولكنه فعلها ..

غريزته المدهشة ، التى نمت مع العمر ، وصقلتها خبرة بلا حدود ، ومهارة فطرية ربّانية ، قادته نحو الهدف ..

وبكل قوّته ، ضغط (أدهم) عنق الثعبان ، الذى أصابه الغضب ، فتخلّى عن ساق هذا الأخير ، وراح يلتفَّ على جسده ..

وكانت هذه وسيلته الثانية ، للتعامل مع فرائسه ..

أن يلتفَّ حول الفريسة ..

ويسحقها سحقًا ..

ثم يجذبها إلى الأعماق ..

ويبتلعها فى هدوء ..

وحاول (أدهم) أن يفلت من هذه الالتفافة ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكن الثعبان الضخم كان يقاتل فى عرينه ..

وبيئته ..

ومستنقعه ..

لذا فقد سيطر على كل مقاومة الفريسة ..

والتفَّ حولها فى قوة ..

وراح يعتصرها ..

ويعتصرها ..

ويعتصرها ..

وهو يغوص بها إلى الأعماق أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وشعر (أدهم) بضغط هائل على صدره ..

وبأنفاسه تضيق ..

وتضيق ..

وتضيق ..



وأخيرًا ، بلغ (أدهم) خنجره .. والتقطه .. ثم غرسه ، بكل ما أمكنه من قوة ، فى جسد الثعبان ..

وبكل قوّته ، راح يقاوم ، محاولاً بلوغ الخنجر ، المعلّق فى حزامه ..

سلاحه الأخير ، الذى لم يعد لديه من أمل سواه ..

بعد اللّه (سبحانه وتعالى) بالطبع ..

وفى هدوء ، التفّ الثعبان حوله أكثر ، وراح يغوص به إلى ظلمات بلا قرار ، و ...

وأخيرًا ، بلغ (أدهم) خنجره ..

والتقطه ..

ثم غرسه ، بكل ما أمكنه من قوة ، فى جسد الثعبان ..

ومع الطعنة ، تراخى جسد الثعبان لحظة ..

بل أقل من اللحظة ..

وكان هذا يكفى ..

بالنسبة لرجل مثل (أدهم صبرى) ..

لقد استغلّ ذلك الجزء من اللحظة ، لينتزع ذراعه من الثعبان ، ثم يغرس الخنجر فى عنقه ..

مباشرة ..

وفى هذه المرة ، انتفض الثعبان فى عنف ..

وراح يضرب الماء بذيله ..

ولكن (أدهم) طعنه مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وضرب الثعبان الماء بذيله فى عنف أكثر ..

وأكثر ..

ثم تراخى جسده ..

وانتشرت فى مياه المستنقع رائحة رهيبة ..

رائحة الدم ..

والموت ..

وبكل قوته ، دفع (أدهم) جسد الثعبان بعيدًا ، وراح يضرب ماء المستنقع الآسن بذراعيه وقدميه ، ليصعد إلى السطح ، وأنفاسه تكاد تنسف صدره ، مع نقص الهواء ، والآلام التى سببها ضغط الثعبان على إصاباته ..

ولوهلة ، تصوَّر أنه لن يبلغ السطح أبدًا ..

خاصة وأن الظلام الدامس حوله ، جعله لا يدرك كم تبقَى أمامه ..

وانتشرت آلام نقص الأكسجين فى صدره ..

وعضلاته ..

وأطرافه ..

و ...

وفجأة ، برز رأسه على السطح ..

وانطلقت من حلقه شهقة قويَّة ، ملأت صدره الملهوف بالهواء ..

وعلى الرغم من الرائحة العطنة الرطبة لهواء المستنقع ، إلا أنه بدا له كأفضل عطْر فى الكون ، وهو يملأ رئتيه بالحياة ..

ولكن شهقته القوية انطلقت بعيدًا ..

أبعد مما يتصوَّر ..

أو يريد ..

وعلى الرغم من دوىّ محرِّك زورق المستنقعات ، التقطت أذنا الجنرال (بولارد) الشهقة ..

وكذلك فعل حارسا الشاطئ ..

واستدار الكل نحو مصدرها ، فى سرعة ..

وتوتَّر ..

وتحفَّز ..

وبكل انفعال ومقت الدنيا ، هتف (بولارد) :

- إنه هو ..

وبحركة حادة عنيفة ، أدار مقود الزورق ، فدار حول نفسه بحركة بالغة الخطورة ، أفقدت أحد رجاله توازنه ، وأسقطته فى المستنقع ..

ولكن (بولارد) لم يتوقَّف لالتقاطه ..

بل وربما لم يشعر حتى بسقوطه ..

لقد انطلق كالصاروخ ، وقد سيطر على كيانه كله هدف واحد ..

أن يظفر بـ (أدهم) ..

بأى ثمن ..

أما حارسا الشاطئ ، فقد أدارا فوهتى مدفعيهما نحو مصدر الشهقة ، فى سرعة البرق ..

وضغطا الزناد الإضافى ..

وانطلقت ألسنة اللهب على سطح المستنقع ..

وأضاءت المكان كله دفعة واحدة ..

ومع الضوء المباغت ، أغلق (أدهم) عينيه وهلة ..

ثم عاد يفتحهما ..

وانعقد حاجباه فى شدَة ..

فعلى وهج النيران ، وعلى بعد ثلاثة أمتار فحسب منه ، رأى عينين كبيرتين ..

عينى تمساح ضخم ، من تماسيح المستنقع(*) ..

تمساح يسبح نحوه فى بطء صامت ؛ ليباغته فى اللحظة الأخيرة ..

(*) التمساح : زاحف لاحم ، له حراشيف قرنية فوق ظهره ، وصفائح عظمية عند بطنه ، وفكَّان قويان ، وأرجل قصيرة ، وذيل مفلطح ، والتمساح النيلى طوله حوالى خمسة أمتار ، وهو من أخطر الحيوانات النهرية فى (إفريقيا) ، ونادرًا ما يبلغ منطقة (مصر) والدلتا .

وفى نفس اللحظة ، التى لمح فيها (أدهم) التمساح ، هتف أحد الحارسين بجملة ما ..

وانطلقت الرصاصات كالمطر ..

ولأنه من المستحيل ، بالنسبة لتصميم المدفع ، أن تنطلق النيران والرصاصات معًا ، فقد توقَّفت ألسنة اللهب ، فور دوى الرصاصات ..

وعاد الظلام يطبق على كل شىء ..

وتراجع (أدهم) فى سرعة ، وهو يرفع خنجره ، ويتوقَّع انقضاضة فكىَّ التمساح فى أية لحظة ..

ومن بعيد ، برز (بولارد) بزورقه ورجاله ..

وعادت الأضواء ..

من ناحية الزورق هذه المرة ..

ومع عودتها ، رأى (أدهم) أمامه أبشع مشهد يمكن أن يراه مخلوق حىّ ..

فى لحظاته الأخيرة ..

رأى التمساح على قيد نصف متر منه فحسب ..

وقد فتح فكَّيه عن آخرهما ..

واستعدّ للانقضاض ..

وحاول (أدهم) أن يتراجع ..

ولكن التمساح كان يتحرَّك أيضًا فى بيئته ..

ومستنقعه ..

وبكل وحشيته وشراسته ..

وجوعه ..

لذا ، فقد كانت انقضاضة عنيفة ، قوية ، و ...

ولكن فجأة ، انتفض جسده كله فى عنف ..

وأطبق فكَّيه فى قوة ، قبل أن تبلغ أسنانه جسد (أدهم) بسنتيمتر واحد ..

ثم انقلب على ظهره دفعة واحدة ..

وهمدت حركته تمامًا ..

وكانت مفاجأة حقيقية لـ (أدهم) ..

فرصاصات حارسى الشاطئ ، التى انطلقت لتسحقه ، هى نفسها التى أنقذته من أنياب التمساح ..

التمساح الرهيب ..

ومن زورقه رأى (بولارد) المشهد ، على ضوء مصباح الزورق الضخم ، فصرخ فى غضب هادر :

ـ أيها الأوغاد .

ثم تخلَّى عن ذراع القيادة ، واختطف أحد المدافع الآلية ، وراح يطلق النيران كالمطر ، وهو يصرخ :

ـ إنه هو .. اقتلوه .. اقتلوه .

غاص (أدهم) فى مياه المستنقع فى سرعة ، وشعر بالرصاصات تخترق كل شىء من حوله ، وسمع دويها على السطح ، ممتزجًا بهدير محرِّك زورق المستنقعات ، وبصوت (بولارد) الهادر ، وهو يصرخ :

ـ لا تسمحوا له بالفرار .. اقتلوه .. اقتلوه بأى ثمن .

ثم انتزع قنبلة من حزامه ، مكررًا بغضب هائل :

ـ بأى ثمن .

وألقى القنبلة فى مياه المستنقع ..

ودوى الانفجار فى الأعماق ..

انفجار مكتوم ، كاد ينسف أذنى (أدهم) ، الذى أمسكهما فى ألم ، وهو يتقلَّب تحت الماء ، قبل أن يدفع كل إرادته إلى الأمام ، ويسبح بكل ما تبقَّى له من قوة ، مبتعدًا عن الزورق ..

فى أى اتجاه ..

ومن خلفه ، وفى الأعماق ، دوى انفجار ثان ..

وثالث ..

ورابع ..

ولم يعد باستطاعته أن يحتمل ..

حتى (أدهم صبرى) لم يعد قادرًا على المقاومة ..

جسده البشرى استجاب لآدميته أخيرًا ، بعد أن نفدت طاقته عن آخرها ..

أو كادت ..

والعجيب أنه لم يشعر حتى بالألم أو المرارة ، عندما استسلم جسده ، واسترخى تمامًا فى قلب المستنقع ..

الجهد الهائل الذى بذله خلال الساعة السابقة ، أفقده كل طاقته ..

ومشاعره ..

وأحاسيسه ..

وعندما راح جسده يسبح صاعدًا إلى السطح ، بفعل قوة دفع المياه ، من أسفل إلى أعلى ، بدا له وكأنه يشاهد أحداث فيلم عجيب ..

أو أنه يشاهد جسد شخص آخر ..

فى ظروف أخرى ..

ولوهلة ، خُيِل إليه أن روحه تصعد إلى بارئها ، وتراقب جسده من بعيد ، والمياه تنحسر عن وجهه ..

وأمامه .. ودون أية مشاعر ، وقع بصره على حارسى الشاطئ ، وهما يعدوان نحوه ، ويصوِّبان إليه مدفعَيهما ..

ولكنه لم يقاوم ..

لم يتحرَّك حتى من مكانه ، حتى إن أحدهما تصوَّر أنه قد لقى مصرعه ، فاستدار إلى زميله ، ونطق عبارة ما ..

والعجيب أن ذهن (أدهم) كان صافيًا بدرجة مدهشة ، فى تلك اللحظة .

فعلى الرغم من أنه لم يفهم ما قاله الرجل بالتحديد ، إلا أنه تعرَّفا ماهيةَ تلك اللغة ..

وأدرك لماذا لم يفهمها منذ البداية ..

فهى اللغة الفلمنكية ، التى يتحدَّثها بضعة آلاف من سكان العالم فحسب ، فى شريحةَ صغيرةَ من جنوب شرق (بلجيكا)(*) ..

(*) (بلجيكا) : مملكة شمال غرب (أوروبا) ، يحدّها بحر الشمال و (هولندا) شمالاً ، و (ألمانيا) و (لكسمبورج) شرقًا ، و (فرنسا) غربًا .. عاصمتها (بروكسل) ، وتعدّ واحدة من أكبر الدول الصناعية فى العالم ، وهناك فاصل لغوى يتجه من الشرق إلى الغرب ، مارًا بالعاصمة (بروكسل) ، يفصل المتكلمين بالفلمنكية شرقًا ، من المتحدثين بالفرنسية جنوبًا ، كما أن الألمانية هى لغة منطقتى (أويبن) و (مالميدى) وفى عام ١٩٤٧م ، وبعد الحرب العالمية الثانية ، تكوَّن اتحاد بينها وبين (هولندا) و(لكسمبورج) ، عُرف فيما بعد ١٩٦٠م ، باسم اتحاد (بنلوكس) .

لغة لم يتعلَّمها (أدهم) أبدًا ..

وربما لهذا ، تم اختيار المرتزقة ، من بين المتحدثين بها ..

ربما لأن من استأجرهم يعلم الكثيرَ عنه ..

الكثير جدًّا ..

يعلم ما يكفى ، ليدرك أنها لغة نادرة ، لا يجيدها ..

ولكن هذا لم يعد يهمّ الآن ..

فالحارسان يصوِّبان إليه مدفعيهما ..

و ...

والرصاصات تدوى فى عنف ..

فى قلب الأدغال ..

★ ★ ★

انتفض جسد (منى) فى عنف ، داخل الهليوكوبتر الصغيرة ، التى تحلِّق بها وبزميلها (إبراهيم) ، فوق أدغال (كومانا) ، فالتفت إليها هذا الأخير ، وهو يقول فى دهشة متوترة :

ماذا أصابك ؟!

هتفت فى انفعال :

ـ هل سمعت دوى الرصاصات ؟!

انعقد حاجباه ، وهو يقول :

ـ أية رصاصات ؟!

أشارت بيدها ، وهمَّت بقول شىء ما ، إلا أنها لم تلبث أن أطبقت شفتيها ، وتمتمت فى خفوت شديد ، وكأنها تتعمَّد ألا يسمعها :

ـ لقد سمعتها ..

ثم انخفض صوتها أكثر وأكثر ، مضيفة :

ـ فى قلبى .

لم يسمع ما قالته ، فمال نحوها متسائلاً ، فى نفس الوقت الذى قال فيه طيَّار الهليوكوبتر فى توتر :

ـ الأدغال مشتعلة بالفعل .. إنها دائرة كبيرة .. النيران أوشكت على أن تخبو ، ولكن ...

هتفت به (منى) :

ـ اهبط هناك .. أسرع .

صاح بها الطيَّار :

ـ هـل جُننت ؟! إنهـا أدغـال متشـابكة .. لـن نجـد سنتيمترًا واحدًا يصلح للهبوط هنا .

استلّ (إبراهيم) مسدسه ، وهو يقول فى حزم :

ـ اقترب من الأرض فحسب يا رجل .

انعقد حاجبا الطيَّار فى توتر ، وهو يغمغم :

ـ سأحاول ..

قالها ، وانخفض بالهليوكوبتر فى حذر ، و ...

وفجأة ، لمح زورق (بولارد) ، وهو ينطلق علـى سطح المستنقع ..

وفى اللحظة نفسها ، لمحهُ (بولارد) ..

وبكل غضبه وثورته ، هتف سفاح الصِّرب :

ـ يا للسخافة !

ثـم استدار يطلـق رصاصـات مدفعـه القوى ، نحـو الهليوكوبتر مباشرة ..

وبلا تردُّد .. أو حتى تفكير ، أطلق رجالـه النـيران بدورهم ..

نحو الهدف نفسه ..

ومع ارتطام الرصاصات بجسم الهليوكوبتر ، جذب الطيَّار ذراع القيادة بكل قوّته وذعرِه ، وهو يصرخ :

ـ إنهم يطلقون النار .. إنهم يطلقون النار .

صاح به (إبراهيم) فى صرامة :

ـ وماذا كنت تتوقَّع يا رجل ؟!

هتف الطيَّار ، وهو يبتعد :

ـ كان ينبغى أن أرفض القيام بمهمة كهذه .. كان ينبغى أن أفعل .

أما (منى) ، فقد انعقد حاجباها فى شدّة ، وخفـق قلبهـا بين ضلوعهـا فـى عنـف ، وهـى تردُّد بصـوت مرتجف :

ـ إنه هو .. إنهم يسعون خلفه .

ثم وثبت بغتة ، تدفع الطيَّار جانبًا ، وهى تهتف فى خشونة عجيبة :

ـ ابتعد .

حدّق فيها (إبراهيم) فى دهشة ، فى حين هتف الطيّار مستنكرًا :

ـ ماذا تفعلين ؟!

ألصقت فوهة مسدسها بصدغه ، صائحة :

ـ قلت : ابتعد .

حلّ الرجل حزام مقعده ، وتراجع إلى المقعد الخلفى ، و (إبراهيم) يسألها فى قلق باللغة العربية :

ـ ماذا ستفعلين ؟!

أجابته فى حزم ، وهى تحتلّ مقعد القيادة ، وتربط حزامه فى إحكام :

ـ إنه هو .. سأعود لمؤازرته .

هتف بها :

ـ ومن أدراك ؟!

كادت تهتف به :

ـ قلبى .

إلا أن طبيعتها كأنثى جعلتها تهتف فى صرامة :

ـ أنا أعلم .

ثم دفعت عصا القيادة إلى الأمام واليسار ، فمالت فى عنف ، واندفعت نحو المستنقع ، وهى تهتف :

ـ هيًا .. أطلق عليهم النار ..

تفجَّر غضب هادر فى أعماق الجنرال (بولارد) ، عندما عادت الهليوكوبتر أدراجها إليه ، و (إبراهيم) يطلق النار منها فى غزارة ..

فمنذ لحظات ، بلغ مسامعه دوى الرصاصات عند الشاطئ ..

وأدرك أن حارسيْه قد ظفرا بخصمه ..

وكانت كل ذرة فى كيانه تتلهَّف لمعرفة النتائج ..

ولرؤية جثة (أدهم) ممزَّقة ..

هامدة ..

ولكن الهليوكوبتر ظهرت بغتة ..

وأعاقت انطلاقه ..

لذا فمن الضرورى أن تسقط ..

وبأى ثمن ..

وبكل غضبه ، صرخ فى رجاله :

ـ الصواريخ .. استخدموا الصواريخ ..

وفى لحظة واحدة ، رفع كل منهم مدفعه ، واستعد لإطلاق صاروخه ..

وفى الهليوكوبتر ، اتسعت عينا الطيَّار ، بكل رعب الدنيا ، وهو يصرخ :

ـ أخرجونى من هنا .. أخرجونى .

دفعه (إبراهيم) فى قوَّة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ على الرحْب والسعة .

سقط الرجل من الهليوكوبتر ، وهو يطلق صرخة مذعورة ، قبل أن يرتطم بمياه المستنقع ، ويغوص فيها لمترين ، ثم يصعد إلى السطح ، ويسبح بكل رعبه نحو الشاطئ ..

أما (منى) ، فقد واصلت اندفاعها نحو الزورق ، و (إبراهيم) يطلق رصاصاته فى قوة ..

وغزارة ..

وإحكام ..

وأصابت رصاصاته اثنين من رجال (بولارد) ، الذى صرخ :

ـ الآن ..

أطلق أحدهم صاروخه ، وجذبت (منى) ذراع الهليوكوبتر إلى اليمين ، فانحرفت بحركة مباغتة ، ليتجاوزها الصاروخ ، ويصعد فى الهواء ، ثم ينفجر فى عنف ..

ومع انفجاره ، ارتجَّت الهليوكوبتر ..

وأطلق أحد رجال (بولارد) صاروخًا ثانيًا ..

وصرخ الجنرال :

ـ انسفوهم .. اسحقوهم ..

وتفادت (منى) الصاروخ الثانى ، وهتف (إبراهيم) مع انفجاره بعيدًا :

ـ لن نفلح يا (منى) .. ابتعدى .. ابتعدى باللَّه عليك .

ولكنها استلّت مسدسها بدورها ، هاتفة :

ـ مستحيل !

ثم جذبت ذراع الهليوكوبتر ، وارتفعت بها فى سرعة ، ثم دارت فى الهواء ، و ...

انقضَّت على الزورق مباشرة ..

وصرخ (بولارد) :

- انسفوهم .

ومع تردُّد صرخته وسط المستنقع ، انطلق صاروخ ثالث ..

وأصاب هدفه هذه المرة ..

ودوى الانفجار ..

بمنتهى العنف .

★ ★ ★

٣ - إكس ..

انعقد حاجبا وزير الدفاع الأمريكى فى شدَّة ، وهو يراجع خرائط الأقمار الصناعية الحديثة ، قبل أن يغمغم :

- عجبًا ! لا يوجد أدنى أثر لهم .

أشار إليه قائد القوات الجوية ، قائلاً :

- الطلعات التقليدية أيضًا لم تظفر بأى أثر لهم ، كما لو أنهم يضربون ضرباتهم ويختفون كالأشباح .

هزَّ وزير الدفاع رأسه ، قائلاً :

- بل قُل : كما لو أنهم يعرفون مسارات الأقمار الصناعية ومواعيد الطلعات الجوية مسبقًا .

سأله قائد القوات الجوية فى حنق :

- ما الذى تشير إليه بالضبط أيها الوزير ؟!

أجابه الوزير فى صرامة :

- إلى وجود اختراق لنظامنا الأمنى يا رجل .

هتف قائد القوات الجوية فى حدة :

- لست أسمح بـ ...

قاطعه الوزير بنفس الصرامة :

- ومن ينتظر سماحك ورفضك يا هذا ؟!

ثم هبَّ من مقعده ، مضيفًا فى حدة :

- إننى أتحدَّث عن جاسوس .. خيانة وسط الصفوف الأولى .. هل يمكنك أن تلقى مشاعرك جانبًا ، وتستوعب هذه الحقيقة المخيفة .

حدَّق فيه قائد القوات الجوية ، على نحو أقرب إلى الذهول ، قبل أن يتراجع فى بطء ، قائلاً :

- جاسوس ؟! فى الصفوف الأولى ؟! ولكن هذا مستحيل !

أجابه الوزير فى حزم :

- لم يعد هناك مستحيل ! المستحيل الوحيد هو أن تعتمد ضرباتهم كلها على الحظ وحده .. إنهم يعلمون

جيِّدًا أين ومتى يضربون كل ضربة .. هناك من يمدّهم حتمًا بالخرائط والجداول .. ومن قلب قيادتك .

احتقن وجه الوزير ، وغمغم :

- لا يمكننى حتى استيعاب هذا .

أجابه الوزير ، فى صرامة متناهية :

- ليس أمامك سوى استيعابه .. لقد طرحنا الأمر على أفضل خبرائنا ، واتفق رأيهم على أمر واحد .. هناك حتمًا جاسوس على أرفع مستوى ، ينقل كل تحركاتنا لمنظمة (إكس) هذه .. تمامًا مثلما فعل الجنرال (شامبليون) فى (فرنسا) ، والجنرال (بريماكوف) فى (روسيا) .. ضع الفكرة فى رأسك ، وستجد أن كل شىء سيصبح منطقيًا تمامًا .

قال قائد القوات فى عصبية :

- حتى ولو كان كذلك .. جسدى يرتجف لمجرَّد التفكير فيه .

قال الوزير فى حزم :

- دعه يرتجف طوال الوقت إذن ..

ثم أشار بيده ، مضيفًا :

ـ فسيبدأ إجراء تحقيق واسع ، للبحث عن ذلك الجاسوس المفترض .

زفر قائد القوات فى عصبية ، وقال :

ـ فليكن .. سأجرى التحقيق بنفسى ، و ...

قاطعه الوزير فى صرامة :

ـ معذرة يا قائد القوات الجوية .. لا يمكنك إجراء التحقيق ، لأنك أيضًا ستخضع له .

اتسعت عينا القائد ، وهو يهتف معترضًا ومستنكرًا :

ـ هل تجرؤ ...

قاطعه الوزير مرة أخرى :

ـ الجميع سيخضع للتحقيق أيها القائد .. الجميع بلا استثناء .

لم يكد يتمّ عبارته الصارمة ، حتى اندفع أحد الضباط إلى المكان ، وأدّى التحية العسكرية ، قائلاً :

ـ ضربة جديدة أيها القائد .

مدّ قائد القوات يده ، ليلتقط البرقية التى يحملها الضابط ، ولكن الوزير أسرع يختطفها فى لهفة ، ويلقى نظرة عليها ، قبل أن يمتقع وجهه ، وتعجز ساقاه عن حمله ، فيلقى نفسه على أقرب مقعد إليه ، مغمغمًا فى ارتياع :

ـ ربّاه ! مستحيل ! مستحيل !

فالهدف هذه المرّة لم يكن عاديًّا أبدًا ..

لقد كان خطيرًا ..

ومخيفًا ..

للغاية ..

★ ★ ★

وسط ظلام المحيط الدامس ، انطلقت إشارة ضوئية ..

مصباح يدوِى بسيط ، أضاء وأطفأ مرتين ، ثم عاد الظلام يسود المكان كله ..

وفى بطء ، تحرّك زورق آلى كبير ، منفصلاً عن باخرة مظلمة ، لا يمكن أن تلحظها الأعين ، ووسط

ظلام الليل ، ومتجهًا نحو أخرى ، أضاء فيها مصباح أحمر صغير ، وكأنما يرشده إلى موضعها بصعوبة ..

ولثوان ، انطلق الزورق الآلى فى هدوء ، حتى بلغ الباخرة الثانية ، فألقى إليه رجالها سُلمًا من الحبال ، تسلقه ثلاثة من ركابه الأربعة ، فى حين بقى الرابع داخل الزورق الكبير، يراقب ما حوله فى دقة بالغة ..

وعلى سطح الباخرة ، استقبل رجل ضخم ، القادمين الثلاثة بابتسامة باهتة ، وهو يقول :

ـ فى موعدكم تمامًا كالمعتاد .

ابتسم قائد الثلاثة ، وهو يقول :

ـ أمر طبيعى ؛ فعملنا يعتمد على الدِّقة البالغة ، حتى يمكننا اختيار موضع غير مراقب ، فى سرِّية بالغة ، وموعد لا يحتمل التقديم أو التأخير .. بهذا فقط نضمن نجاح عملنا ، دون أية منغصات داخلية ..

ثم تحولت ابتسامته إلى ضحكة ساخرة ، وهو يضيف :

ـ وأنت تعلم كم يكلفنا هذا .

غمغم الضخم :

ـ بالتأكيد .

ثم قاد الرجال الثلاثة إلى باب يقود إلى قاع السفينة ، وهو يضيف :

ـ ولكن الأمر يستحق عن جدارة ، أليس كذلك ؟!

غمغم قائد الثلاثة ، وهو يُشعل سيجارته :

ـ بلى .

ثم نفث دخانها فى عمق ، قائلاً :

ـ كم تبلغ الصفقة هذه المرة ؟!

قال الضخم ، وهو يدفع بابًا داخليًا :

ـ سترى بنفسك .

كان المكان مظلمًا تمامًا ، فضغط زر الإنارة ، ولم يكد يفعل ، حتى سطعت الأنوار فى قاعة هائلة ، تحتل قاع الباخرة الضخمة بأكمله تقريبًا ..

قاعة تحوى صفقة رهيبة ، من كافة أنواع الأسلحة والذخائر ، بدءًا من المسدسات التقليدية ، وحتى الدبابات والعربات المصفحة ..

وفى انبهار ، أطلق قائد الثلاثة صفيرًا طويلاً ، قبل أن يقهقه ضاحكًا ، ويقول :

ـ إنها أسلحة تكفى جيشًا كاملاً يا رجل .

زمجر الضخم ، قائلاً :

ـ قلتم : إنها حرب أهليةَ فى (الإكوادور) .. أليس كذلك ؟!

التقط زعيم الثلاثة مدفعًا آليًا ، وراح يفحصه فى اهتمام ، وهو يقول :

ـ بلى .. والواقع أننا نحن أشعلناها .

وقهقه ضاحكًا مرة أخرى ، مضيفًا :

ـ هذا يروِّج البضائع .

لم يكد يتم عبارته ، حتى ارتجت الباخرة فى عنف ، حتى إن الجميع فقدوا توازنهم ، وسقطوا أرضًا ، ثم لم يلبث الضخم أن قفز واقفًا ، واندفع خارج القاعة ، فى حين هتف قائد الثلاثة :

ـ ماذا حدث ؟! ماذا حدث ؟!

ثم اندفع مع رجليه ، للحاق بالضخم ، وما أن أصبح الجميع على سطح الباخرة ، حتى اتسعت عيونهم فى ذعر ذاهل ، وهم يحدقون فى الغوَّاصة النووية ، التى برزت على السطح ، على بعد أمتار قليلة منهم ، وقائدها يبرز من قمة برجِها ، قائلاً عبر مكبِّر صوتى قوى :

ـ هنا منظمة (إكس) .. نحن نقدِّم إنذارًا واحدًا فى المعتاد .. غادروا الباخرة فورًا ، فى زوارق النجاة ، وإلا فسيتم نسفها بلا رحمة .. وقبل أن تراودكم فكرة حمقاء فى المقاومة ، دعونا نعرض عليكم تجربة بسيطة .

مع آخر حروف كلماته ، برزت (الشبح ـ ٣) فجأة ، متجاوزة الباخرة ، ومتجهة بسرعتها الخارقة نحو الباخرة الأخرى ..

ثم انطلق منها صاروخان ..

صاروخان عاديان ، دون رءوس نووية ، انطلقا نحو الباخرة مباشرة ..

ثم دوى انفجار ..

ليس انفجارًا واحدًا ، بل سلسلة متتالية سريعة من الانفجارات ، راحت تنسف الباخرة ، فى مواضع شتى ، حتى سحقتها سحقًا ..

وفى لحظات ، وقبل أن يتلاشى ذهول الآخرين ، كانت الباخرة الثانية مجرَّد حطام ، فى قاع الأطلنطى ..

وفى صرامة ظافرة ، قال الجنرال (بريماكوف) ، عبْر مكبِّر الصوت القوى :

ـ هذا هو الإنذار الأوَّل والأخير .. سيتم نسف باخرتكم أيضًا ، بعد دقيقة واحدة ، لو بقى رجل واحد على سطحها .. ستون .. تسع وخمسون .. ثمان وخمسون ..

اتسعت عيون الرجال لحظة ، مع بدء العد التنازلى ، ثم هتف الضخم :

ـ غادروا الباخرة .

لم تكن الدقيقة تكفى لإنزال قوارب النجاة ، لذا فقد راح بحَّارة الباخرة يلقون أنفسهم فى المحيط ، ويتقاتلون للفوز بأية فرصة للنجاة ، فى حين عقد (بريماكوف)

كفَّيه خلف ظهره ، وراح يراقبهم فى ظفر شامت عجيب ، وعيناه تتألَّقان ببريق وحشى مخيف ، فمال مساعده نحوه ، قائلاً :

ـ هل نأمر رجالنا باحتلال السفينة ، فور ابتعاد بحَّارتها ؟

استدار إليه (بريماكوف) ، قائلاً فى صرامة :

ـ ابتعادهم ؟! هل تقصد أننا سنسمح لهم بالرحيل ؟!

سأله مساعده فى حذر :

ـ ماذا تعنى بالضبط يا سيِّدى ؟!

هزَّ (بريماكوف) كِتفيه ، وقال :

ـ أعنى أننا أمرناهم بمغادرة السفينة ، حتى لا نضطر لإطلاق النار عليهم داخلها فحسب .. إنها حاملة أسلحة جميلة ، ولا داعى لافسادها بثقوب سخيفة ..

ثم التقط نفَسًا عميقًا ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ لذا فما إن يبتعدوا ، حتى يكون عليكم سحقهم سحقًا ..

وعادت عيناه تتألقان ، وهو يكمل فى ظفر :

ـ ثم استولوا على السفينة ، بكل ما تحمله من أسلحة وذخائر .

نطقها ، وتألّقت عيناه بوحشية أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

★ ★ ★

« باخرة تحمل صفقة أسلحة دولية كاملة .. »

هتف مساعد مدير المخابرات المصرية بالعبارة ، فى انفعال واضح ، قبل أن يضيف فى توتر ملحوظ :

ـ كان المفترض أنها صفقة سرية ، تتابعها المخابرات الأمريكية ، ولا أحد يعلم عنها شيئًا ، باستثناء المشاركين فيها ، وعدد أقل من أصابع اليد الواحدة ، فى (السى . آى . إيه)(*) ..

غمغم المدير ، فى تفكير عميق :

(*) المخابرات المركزية الأمريكية .

ـ وعلى الرغم من هذا ، فقد كشف رجال منظمة (إكس) أمرها ، وموقع وموعد التسليم ، وهاجموها ليستولوا على أسلحة قيمتها ثلاثة مليارات دولار دفعة واحدة .

قال مساعده :

ـ ليس هذا فحسب ، ولكنهم استولوا على مليار دولار نقدًا ، كانت هى الدفعة الأخيرة ، المفترض دفعها عند التسليم .

مطَّ المدير شفتيه ، وهو يغمغم :

ـ يا لها من ضربة ! لقد صار هؤلاء الأوغاد قوة رهيبة بالفعل .

وافقه مساعده بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ ويزدادون قوة فى كل يوم .

هتف المدير :

ـ بل فى كل ساعة .

ثم اعتدل على مقعده ، وبدت عليه علامات التفكير العميق ، وهو يضيف :

ـ والعجيب أن معلوماتهم وتوقيتاتهم دائمًا دقيقة للغاية .. كما لو ..

وصمت لحظة ، قبل أن يكمل فى حزم :

ـ كما لو أن أحدهم يمدّهم بالمعلومات ، أوّلاً فأولاً .

ومال إلى الأمام ، متابعًا فى صرامة :

ـ هناك جاسوس بين صفوف وكالة الفضاء والطيران الأمريكية حتمًا ..

والتقط سمّاعة هاتِفه الخاص ، مضيفًا :

ـ ومن الضرورى أن يدرك الأمريكيون هذا .

تنحنح مساعده ، قائلاً :

ـ إنهم يدركون .

رفع إليه المدير عينين متسائلتين ، فتابع فى سرعة :

ـ هذا هو التقرير الثانى، الذى ينبغى أن أعرضه على سيادتكم الآن .. الأمريكيون يقومون بحملة واسعة ، لاستجواب كل قيادات وكالة الفضاء والطيران ، والقوات الجوية الأمريكية ، بعد أن اقتنعوا تمامًا بوجود جاسوس بين الصفوف .

تنهّد المدير فى ارتياح ، قائلاً :

ـ عظيم .. إنها خطوة إلى الأمام .

ثم نهض من خلف مكتبه ، متابعًا :

ـ ولكن الأمور تحتاج إلى تحركات أكثر سرعة ، قبل أن تبلغ مرحلة ، لا يعود من المُجدى فيها أن نفعل شيئًا .

غمغم مساعده فى قلق :

ـ هل تعنى قبل أن تبلغ قوة تلك المنظمة حدًا ، يجعلها أشبه بدولة صغيرة ؟!

أجابه المدير فى توتر :

ـ كل الدول ، صغيرة أو كبيرة ، يمكنك أن تواجهها وتحاربها ؛ لأنك تعرف موقعها على الأقل ، أمّا ما نواجهه ، فهو كيان قوى إلى حد مخيف ، ولكنه هُلامى مَطّاطى ، فى الوقت ذاته ، على نحو بالغ الغرابة ، حتى إنك لا تعلم كيف وأين يمكن أن تواجهه ، وكل ما أمامك هو أن تنتظر ضربته القادمة ، وتأمل أن تكون هناك ، فى اللحظة المناسبة .

قال المساعد فى أسف :

ـ آه لو أمكننا اختراق صفوفهم ، كما اخترقوا صفوف الجميع ..

هزَّ المدير رأسه نفيًا ، وقال :

ـ هذا ليس بالأمر السهل .

هتف المساعد :

ـ بل هو ، فى رأيى ، أمر مستحيل !

التقى حاجبا المدير ، وهو يقول :

ـ لهذا كان يحتاج إلى رجل من طراز خاص .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى صرامة :

ـ رجل المستحيل !

قالها ، وذهنه يقفز بعيدًا ..

بعيدًا جدًّا ..

إلى أدغال (كوماتا) ..

وإلى الرجل الوحيد ، الذى يبدو مناسبًا لكل هذا ..

(أدهم) ..

(أدهم صبرى) ..

وبكل قلق الدنيا ، وجد نفسه يتساءل : تُرى أما زال على قيد الحياة ؟!

هل نجا من الموت مرة أخرى ؟!

هل ؟!

★ ★ ★

لم يحاول الجنرال (بولارد) الانتظار ، حتى تسقط الهليوكوبتر فى المستنقع ..

فما إن أصابها الصاروخ ، ودوى انفجارها ، حتى دفع ذراع قيادة زورق المستنقعات بكل قوته ، هاتفًا :

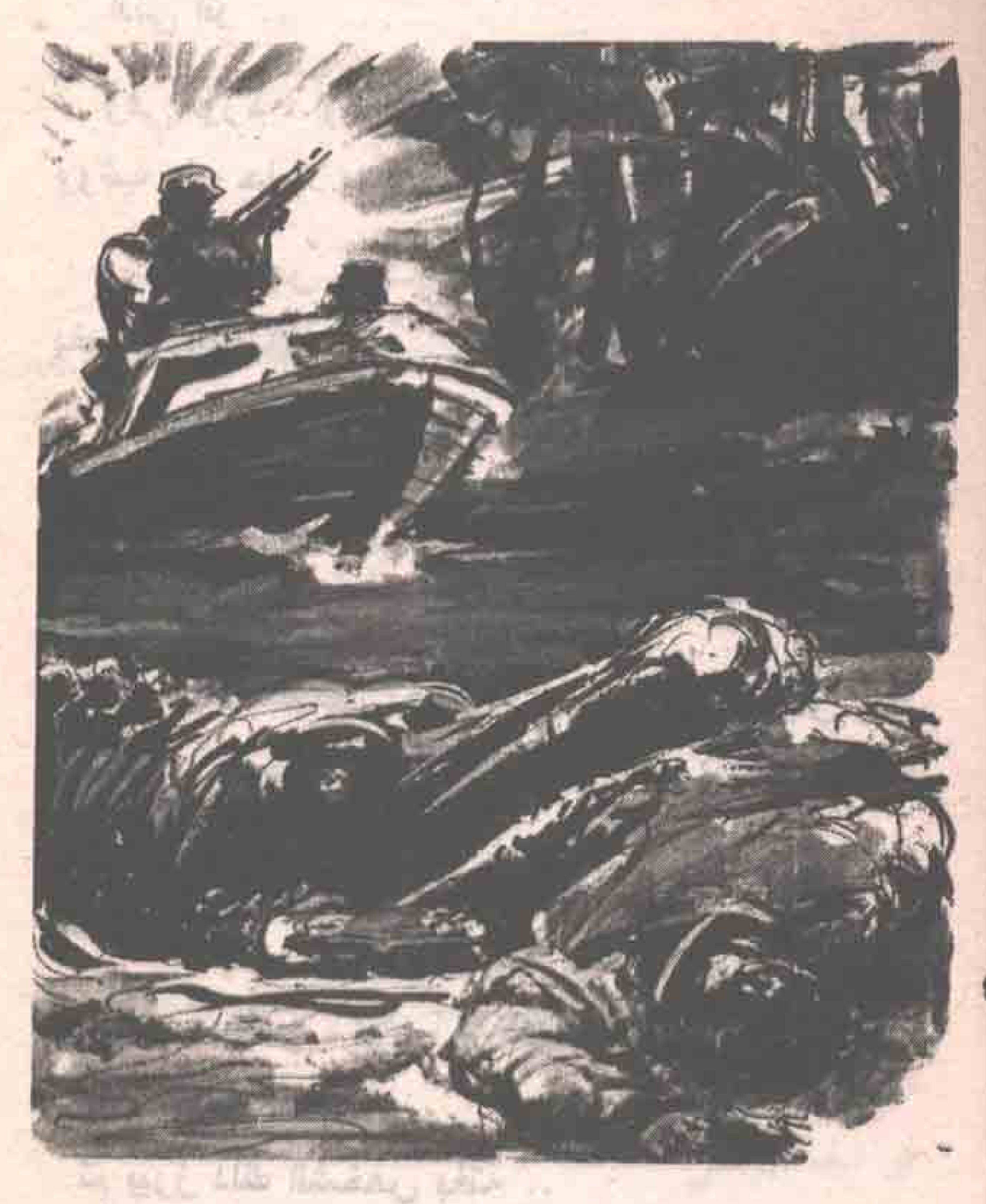
ـ أسرع .. أسرع ..

تناثرت شظايا الهليوكوبتر إلى مسافة واسعة خلفه ، وراحت تهوى فى المستنقع ، فى حين انطلق هو بأقصى سرعة نحو الشاطئ ..

كان يتوقَّع رؤية جثة (أدهم صبرى) ، وسط بركة من الدم ، تسيل فى المستنقع ، وتجذب إليها كل حيواناته المفترسة ..

ومن بعيد لمح الجثة ..

بل جثتين ..



ومن بعيد لمح الجثة .. بل جثتين .. كانت إحداهما ملقاة على الشاطىء ، والثانية يجذبها تمساح ضخم إلى المستنقع ..

كانت إحداهما ملقاة على الشاطئ ، والثانية يجذبها تمساح ضخم إلى المستنقع ..

وفي غضب هادر، أطلق نيران مدفعه نحو التمساح ، صارخًا :

- ابتعد أيها الحقير .. إنه لى .

أصابت الرصاصات التمساح ، فانقلب على ظهره ، وتفجَّرت الدماء من مواضع شتى فى جسده ، فى حين انطلق (بولارد) بالزورق نحو الشاطئ ، والصورة تتضح أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ثم فجأة ، أصبح المشهد واضحًا تمامًا ..

واشتعلت أعماقه كلها بنيران الغضب ..

فالجثتان على الشاطئ كانتا جثتى رجليه ، اللذين أصابتهما عدة رصاصات ، نسفت رأسيهما ، واخترقت جسديهما ..

أما (أدهم) ، فلم يكن له أثر ..

أدنى أثر ..

وفى ثورة ، أوقف (بولارد) الزورق عند الشاطئ ، ووثب منه حاملاً مدفعه ..

وراح يفحص المكان فى عصبية بالغة ، وهو يغمغم باللغة الفلمنكية :

ـ إنه لم يقاتلهما .. لقد ألقته المياه على الشاطئ ..

ثم تحرَّك يفحص المنطقة ، على ضوء مصباحه اليدوى ، متابعًا فى عصبية :

ـ هناك شخص آخر .. شخص برز من بين الأشجار ، و ...

بتر عبارته ، واعتدل ، وهو يرسم المشهد فى ذهنه ..

مشهد رَجليه ، وهما يستعدان لإطلاق النار على (أدهم) ..

ثم يبرز ذلك الشخص بغتة ..

ويطلق النار ..

ومع المفاجأة ..

وبأسلوب محترف تمامًا ، يفاجئ الرجلين ..

ويصرعهما ..

ثم ...

توقَّف المشهد عند هذه النقطة ، وانحنى يفحص المكان مرة أخرى ، فى اهتمام زائد ، وعصبية بلا حدود ..

ومع الفحص ، أضيفت إليهما دهشة ..

دهشة عارمة ..

فالشخص الذى قتل رَجُليه ، تقدَّم نحوهما ، ثم سحب جسد (أدهم) ..

نعم .. سحبه ..

رجل المخابرات المصرى لم يكن قادرًا على السير..

كان منهارًا ..

أو فاقد الوعى ..

والآخر سحبه على الأرض فى قسوة وخشونة ..

ولمسافة عشرة أمتار ، وسط الأدغال والأحراش ..

حيث كانت سيارة تنتظره ..

سيارة صغيرة ، ذات إطارات كبيرة عريضة ..

السيارة المثلى ، للسير وسط الأدغال ..

ولقد نقل (أدهم) إليها ..

ثم انطلق مبتعدًا ..

آثار الإطارات تبدو واضحة ..

واعتدل (بولارد) ، وكل ذرة فى كيانه تغلى غضبًا ..

لقد أفلت منه الصيد ..

أفلت بوسيلة أو أخرى ..

أحدهم ظفر به ..

أو أنقذه ..

لا أحد يدرى ..

المهم أنه لم يعد ملكه ..

لم يقع فى قبضته ..

وبكل غضب الدنيا ، صرخ :

ـ لماذا ؟!

توتّر رجاله ، وراحوا يتبادلون نظرة عصبية ، فقال فى حدة :

ـ انتشروا فى الأدغال .. أريد معرفة من الـ ...

قاطعه أزيز جهاز الاتصال الخاص فى جيبه ، فالتقطه بحركة حادة ، قائلاً :

ـ من المتحدِّث ؟!

أتاه ذلك الصوت الآلى ، يقول :

ـ لقد فقدتم المصرى .. أليس كذلك ؟!

هتف (بولارد) فى عصبية :

ـ ليس بعد يا مستر (X) .. الواقع أننا ..

أجابه الرجل فى صرامة :

ـ الواقع أنك تبحث عن تبرير سخيف يا (بولارد) .

انعقد حاجبا (بولارد) ، دون أن يجيب ، فتابع مستر (X) فى صرامة :

ـ لقد ظفرت به أنا .

هتف (بولارد) بدهشة بالغة :

ـ أنت ؟!

أتاه ذلك الصوت المعدَّل ، يقول :

ـ نعم .. أنا يا جنرال .. لقد نقلته إلى الوكر .

اندفع (بولارد) ، وهو يشير إلى رِجَاله ، هاتفًا :

ـ سنلحق بكُما على الفور يا مستر (X) .

صمت الصوت بضع لحظات ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ لقد أفسدت الأمر تمامًا هذه المرة يا (بولارد) .

لهث (بولارد) ، وهو يتجه مع رجاله إلى الوكر الإليكترونى ، هاتفًا :

ـ لقد فعلنا ما بوسعنا يا مستر (X) ..

قال الصوت فى غضب :

ـ ما بوسعكم ؟! هل تسمِّى إشعال النيران فى الأدغال ، وكل تلك الانفجارات ، التى تكفى لجذب انتباه الموتى ، بذل ما بوسعكم ؟!

بلغ (بولارد) ورجاله الوكر ، واندفعوا داخله ، وهو يهتف :

ـ لم تكن هناك وسيلة أخرى .

صمت الصوت بضع لحظات ، ثم قال فى حزم :

ـ بالضبط .. لا توجد وسيلة أخرى .

قطع (بولارد) ورجاله بعض ممرات الوكر ، قبل أن يتوقَّف ، ويتلفت حوله فى توتر ، قائلاً :

ـ ولكن أين هو ؟! وماذا أصاب المكان ؟! هل تم سحق كل معداته ؟!

أجابه الصوت الصارم الآلى :

ـ لقد أفسدت الأمور يا (بولارد) .

هتف (بولارد) :

ـ ليس كما ...

ثم انتبه فجأة إلى الموقف ، فاتسعت عيناه عن آخرهما ، وصرخ :

ـ أيها الوغد .

تابع الصوت ، بنفس الصرامة :

ـ النيران والانفجارات جذبت الجميع ، كالذباب حول طبق مكشوف من العسل .. ولن يضيرنا انفجار آخر .

ثم تضاعفت صرامته ، وهو يضيف :

ـ بل ربما يخفى الكثير ..

انطلق (بولارد) يعدو ، محاولاً الخروج من الوكر ، وهو يصرخ :

ـ أيها الوغد .. أيها الخائن .

ولكن الأبواب الأليكترونية كانت كلها مغلقة ..

كلها بلا استثناء ..

ومن جهاز الاتصال المحدود ، تضاعفت صرامة الصوت أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وفى رتابة مخيفة ، راح يردِّد عبارة واحدة :

ـ لقد أفسدت الأمور يا (بولارد) .. لقد أفسدت الأمور .

صرخ (بولارد) :

ـ ومع نهاية صرخته ، دوى الانفجار ..

وارتجَّ الوكر المصفَّح كله فى عنف ..

ثم انهارت جدرانه ، وسط عاصفة رهيبة من الغبار ..

وبعدها هدأ كل شىء ..

وعادت الأدغال تحمل صمتها وغموضها ، تاركة خلفها لغزًا جديدًا ..

أين اختفى (أدهم صبرى) ؟!

وكيف ؟!

★ ★ ★



٤ ـ القاتل ..

تثاءب مدير (الموساد) (تيودور زيلمان) فى إرهاق واضح ، وهو يراجع آخر التقارير ، الواردة من مختلف أنحاء العالم ، قبل أن يقول لمساعده الأوّل (بيكويك) فى توتر :

ـ أين اختفى (يارون دزرائيلى) ؟! العالم كله يشتعل كبركان على حافة الانفجار ، وهو يختفى ، دون أن يترك خلفه أدنى أثر ؟!

أى تصرُّف سخيف هذا ؟!

هزَّ (بيكويك) رأسه ، قائلاً :

ـ آخر ما تلقيناه عنه ، هو أنه أصاب مجموعة من المخابرات المصرية ، بوساطة هليوكوبتر ، فى طريق القيادة السريعة ، على مسافة قريبة من (كومانا) .

مطَّ (زيلمان) شفتيه ، قائلاً :

ـ ذلك السخيف يحطِّم كل قواعد السرية ، ويصرّ على جذب أنظار العالم كله لما يفعله .

تنهَّد (بيكويك) ، وهو يقول :

ـ هكذا (يارون) دائمًا .. إنه يختلف تمامًا عن شقيقه الراحل .

غمغم (زيلمان) :

ـ بالتأكيد .

ثم اعتدل ، قائلاً فى حزم :

ـ أرسل إلى مكتبنا فى (كراكاس) ، واطلب منهم البحث عن (يارون) بأية وسيلة ، ومعرفة آخر مواقفه .

قالها ، ثم مال إلى الأمام ، وسأله فى اهتمام شديد :

ـ وماذا عن الصغير ؟!

هزَّ (بيكويك) رأسه ، وخفض صوته ، دون مبرِّر منطقى ، وهو يجيب :

ـ رجالنا ينتظرون وصول طائرته إلى (نيويورك) ، وسيبذلون كل جهدهم لاختطافه ، حتى ولو أدّى الأمر إلى نسف كل مبانى المطار عن آخرها .

تراجع (زيلمان) ، قائلاً فى صرامة :

ـ عظيم .

ثم تثاءب مرة أخرى ، فى إرهاق أكثر ، قبل أن يضيف :

ـ لن تنتصر (سونيا جراهام) علينا قط .

وافقه (بيكويك) بإيماءة من رأسه ، ثم سأله فى حذر :

ـ هل بلغك موقف المصريين الأخير ؟!

أجابه (زيلمان) فى حنق :

ـ نعم .. لقد رفضوا رسميًا التعاون معنا ، ضد منظمة (إكس) .

هتف (بيكويك) :

ـ أغبياء !

لوَّح (زيلمان) بذراعه ، قائلاً :

ـ يتصوَّرون أننا سنحاول استغلال الموقف لصالحنا .

هزَّ (بيكويك) رأسه ، مكررًا :

ـ أغبياء .

جاءت الإيماءة من (زيلمان) هذه المرة ، قبل أن يقول فى اهتمام :

ـ حاول أن تجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات ، عن تلك المنظمة .. عن أنشطتها ، ونظامها ، والمتعاونين معها .. ابحث عن أى شىء ، يمكننا من الاتصال بها ، وعقد صفقة رابحة معها .

ردَّد (بيكويك) فى حذر :

ـ صفقة رابحة ؟!

أجابه فى انفعال :

ـ نعم .. إنها منظمة قوية ، كما يبدو واضحًا ، وتتطوَّر بسرعة مدهشة ، حتى إننى لن أستبعد سيطرتها على قطاع كبير من التسليح والاقتصاد ، خلال عام واحد على الأكثر .

تردَّد (بيكويك) لحظة ، قبل أن يقول :

ـ كنت أتصوَّر أننا سنقاتلها .

هزَّ (زيلمان) كتفيه ، قائلاً :

ـ ولماذا نفعل ؟! أنت تعرف سياستنا دائمًا .. ما دام الخطر لا يواجهنا مباشرة ، فلنمش فى ركب

الأقوياء .. وحسبما أرى ، فمنظمة (إكس) هذه تكاد تضع نفسها على القمة .

هزَّ (بيكويك) كتفيه ، دون أن يقول شيئًا ، فتراجع (زيلمان) فى مقعده ، وقال فى حزم :

ـ وليذهب المصريون بتعقيداتهم وسخافاتهم إلى الجحيم .

فتح (بيكويك) شفتيه ، ليقول شيئًا ما ..

ربما أراد أن يكرِّر كلمته لثالث مرة ..

ولكن شيئًا ما جعله يطبق شفتيه ..

ويبتلع الكلمة ..

دون تعليق ..

* * *

طاف طيار هليوكوبتر منظمة (إكس) حول المستنقع بضع لحظات ، وهو يغمغم فى توتر شديد :

ـ كل شىء يبدو هادئًا .. عجبًا ! على الرغم من أننى قد شاهدت انفجار تلك الهليوكوبتر بنفسي ، فوق المستنقع ، إلا أن شيئًا ما فى أعماقى لا يشعر بالارتياح أبدًا ...

ثم انطلق مبتعدًا ، وهو يتابع :

ـ ولكن دعنا من كل هذا .. المنطقة شهدت الكثير من الضوضاء الليلة ، ومن المؤكَّد أنها ستكتظ بالعشرات بعد قليل .. ولدينا أوامر ينبغى تنفيذها ..

ابتعد عن المستنقع أكثر وأكثر ، وراح يحلِّق فوق قمم الأشجار ، متجهًا نحو بقعة يعرفها جيِّدًا ، ولم يكد يقترب منها ، حتى لمح مصباحى سيارة ، يضيئان وينطفئان عندها ، فغمغم :

ـ آه .. ها هو ذا .

وفى براعة حقيقية ، مال بالهليوكوبتر ، وهبط على مسافة خمسة أمتار من السيارة ، وهتف :

ـ هيَّا .. أسرع .

أجابه الرجل ، الواقف إلى جوار السيارة ، بأسلوب بارد جاف ، لا يحمل أية انفعالات :

ـ لماذا العجلة ؟! كل شىء يسير وفقًا للجدول يا رجل .

ازدرد الطيَّار لعابه فى توتر ، وتلفَّت حوله فى عصبية ، مغمغمًا :

ـ المهم أن يلتزم الآخرون بالجدول أيضًا .

انحنى الرجل داخل السيارة ، وجذب شخصًا من داخلها ، وألقاه على كتفه ، ثم اتجه به نحو الهليوكوبتر ، فى هدوء مستفز ، جعل الطيَّار يهتف به :

ـ أسرع باللّه عليك .. أسرع ..

لم يلق إليه الرجل بالاً ، وهو يواصل سيره بنفس الهدوء ، حتى بلغ الهليوكوبتر ، فألقي حمله داخلها ، فى غلظة وخشونة ، وكأنما يلقى جوالاً من البطاطس ، ثم وثب إليها ، قائلاً :

ـ الآن يمكنك أن تصعد .

جذب الطيَّار ذراع القيادة ، وهو يسأل فى قلق :

ـ أهو حى ؟!

أجابه الرجل فى برود :

ـ فاقد الوعى فحسب .

ثم أخرج من جيبه محقنًا ، وهو يضيف :

ـ وواجبى أن أبقيه كذلك ؟!

تساءل الطيَّار فى توتر :

ـ أهو نفس الرجل ، الذى ...

قاطعه الرجل فى صرامة واقتضاب :

ـ نعم .

مع آخر حروف كلماته ، فتح (أدهم) عينيه ..

فتحهما فى بطء وتهالك ، وتطلَّع إلى حامل المحقن مباشرة ، فقال هذا الأخير فى شماتة ظافرة ، لم يستطع إخفاءها ، خلف قناع وجهه الثلجى :

ـ رؤيتى توحشك .. أليس كذلك ؟!

أجابه (أدهم) ، فى ضعف شديد :

ـ ولماذا ؟! لقد قرأت ملفك أكثر من مرة يا (دزرائيلى).. (يارون حاييم دزرائيلى).. أليس كذلك؟!

كشف (يارون) ذراعه ، وهو يقول :

ـ المدهش أنك تتمتَّع بذهن صاف ، فى حالتك هذه .

ثم غرس إبرة المحقن فى عروقه ، مضيفًا :

ـ ولكن هذا لن يستمر طويلاً .

شعر (أدهم) بالظلام ينتشر فى أعماقه ، فأغلق عينيه ، متمتمًا :

- أنت لا تعمل لحساب (الموساد) هذه المرة .
أجابه (يارون) فى صرامة باردة :
- هذا صحيح .
وكان هذا آخر ما سمعه (أدهم) ..
وبعدها انتشر الظلام فى كيانه كله ..
بلا استثناء ..
وفى ظفر استرخى (يارون) فى مقعده ، وقال :
- أبلغ مستر (x) أن الصيد بحوزتنا ، وأننا فى الطريق إلى (كراكاس) لتسليم البضائع ، طبقًا للجدول .
وارتسمت على شفتيه ابتسامة مخيفة ، وهو يضيف :
- فأنا رجل يلتزم بمواعيده دائمًا .
مطَّ الطيَّار شفتيه ، وضغط زر الاتصال ، وهو ينطلق بالهليوكوبتر مبتعدًا عن أدغال (كوماتا) ..
ومبتعدًا ..
ومبتعدًا ..

* * *

كانت الشمس تكاد تبدأ رحلة الشروق فى الأفق ، عندما امتدت يد تهز قائد القوات الجوية الأمريكية ، الذى استغرق فى نوم عميق ، فى حجرة النوم الصغيرة ، الملحقة بمكتبه ، وارتفع صوت يقول :
- سيِّدى .. السيِّد وزير الدفاع هنا .
انتفض قائد القوات الجوية ، وهبَّ جالسًا على طرف فراشه ، وهو يتساءل :
- هنا ؟!
ثم ألقى نظرة على ساعته ، مستطردًا :
- فى هذه الساعة ؟!
سأله ضابطه فى توتر :
- ماذا أخبره ؟!
فرك قائد القوات عينيه ، ونهض يعدِّل رباط عنقه ، فوق زيه الرسمى ، وهو يقول :
- أخبره أننى آت على الفور .
لم تمض دقيقة واحدة ، حتى كان يعبر الباب الموصل بين الحجرتين، ويرسم على شفتيه ابتسامة كبيرة ، قائلاً :

ـ مرحبًا يا سيادة الو .....

بتر عبارته بغتة ، عندما لمح الرجلين المرافقين للوزير ، ونقل بصره بينهما فى توتر ، قبل أن يكمل :

ـ الوزير .

رمقه وزير الدفاع بنظرة طويلة ، قبل أن يقول :

ـ لقد انتهينا من استجواب كل العاملين ، فى إدارة الفضاء والطيران أيها القائد ، وبالذات أولئك المسئولين عن خرائط الأقمار الصناعية ، ومسارات أسراب الطائرات .

قال القائد فى اهتمام :

ـ عظيم .. وهل توصلتم إلى نتائج إيجابية ؟!

تنهد الوزير ، متمتمًا :

ـ بالتأكيد .

ثم عقد ساعديه أمام صدره ، مضيفًا فى حزم :

ـ لقد توصلنا إلى الخائن الحقيقى .

سأله الوزير فى حذر :

ـ ومن هو بالضبط ؟!

انعقد حاجبا أحد الرجلين ، المصاحبين للوزير ، فى حين دسَّ الآخر يده فى سترته ، والوزير يجيب فى صرامة :

ـ أنت .

ومع قوله، استلَّ الرجلان مسدسيهما، وصوّباهما إلى قائد القوات الجوية ، فجذب ضابطه مسدسه بدوره ، إلا أن الوزير قال فى صرامة :

ـ اخفض مسدسك يا هذا .. ليس لك شأن بالأمر .. إننا نريد قائدك فحسب .

ثم أضاف فى حدة :

ـ ولا تنس أننى رئيسكما معًا .

تردَّد الضابط لحظة ، فتحفَّز رجلا الوزير أكثر ، إلا أن قائد القوات قال فى هدوء عجيب :

ـ اخفض مسدسك .

ارتبك الضابط ، وهو ينقل بصره بين الجميع ، فقال الوزير فى صرامة :

ـ لست أظنك تنكر التهمة أيها القائد ، فلدينا كل

الأدلة اللازمة لإدانتك .. أنت الوحيد الذى يمكنه الحصول على كل خرائط الملاحة ، ومسارات الأقمار الصناعية ، وخطوط سير رحلات البحث الجوية .. كل شىء .. ثم إنك كنت تُبدى اهتمامًا ملحوظًا بكل هذا ، فى الآونة الأخيرة .

اتسعت عينا الضابط فى ارتياع ، وأدار عينيه إلى قائده ، وكأنما ينتظر منه تكذيبًا أو استنكارًا ..

ولكن القائد لم يفعل ..

بل على العكس ، لقد بدا شديد الهدوء والثقة ، وهو يقول :

- فليكن .. لن يمكننى الإنكار بالفعل .. إننى أعترف .

ثم شدّ قامته فى اعتداد ، مضيفًا :

- أنا أعمل لحساب منظمة (إكس) .

انتفض جسد الضابط ، وسقط مسدسه من يده ، وارتطم بالأرض فى عنف ، فى حين انعقد حاجبا الوزير ، وهو يقول :

- يا للخسارة !

أطلّ تحدّ مستفز من عينى قائد القوات ، وهو يقول :

- والآن ماذا ستفعل ؟!

أجابه الوزير فى صرامة :

- سنلقى القبض عليك بالطبع .

سأله فى سرعة :

- ثم ماذا ؟!

قال الوزير فى حدة :

- ماذا تعنى بثم ماذا ؟! بعدها ستكون هناك محاكمة ، وإدانة ، و ...

قاطعه القائد بضحكة عالية مباغتة ، قبل أن يقول فى تحد :

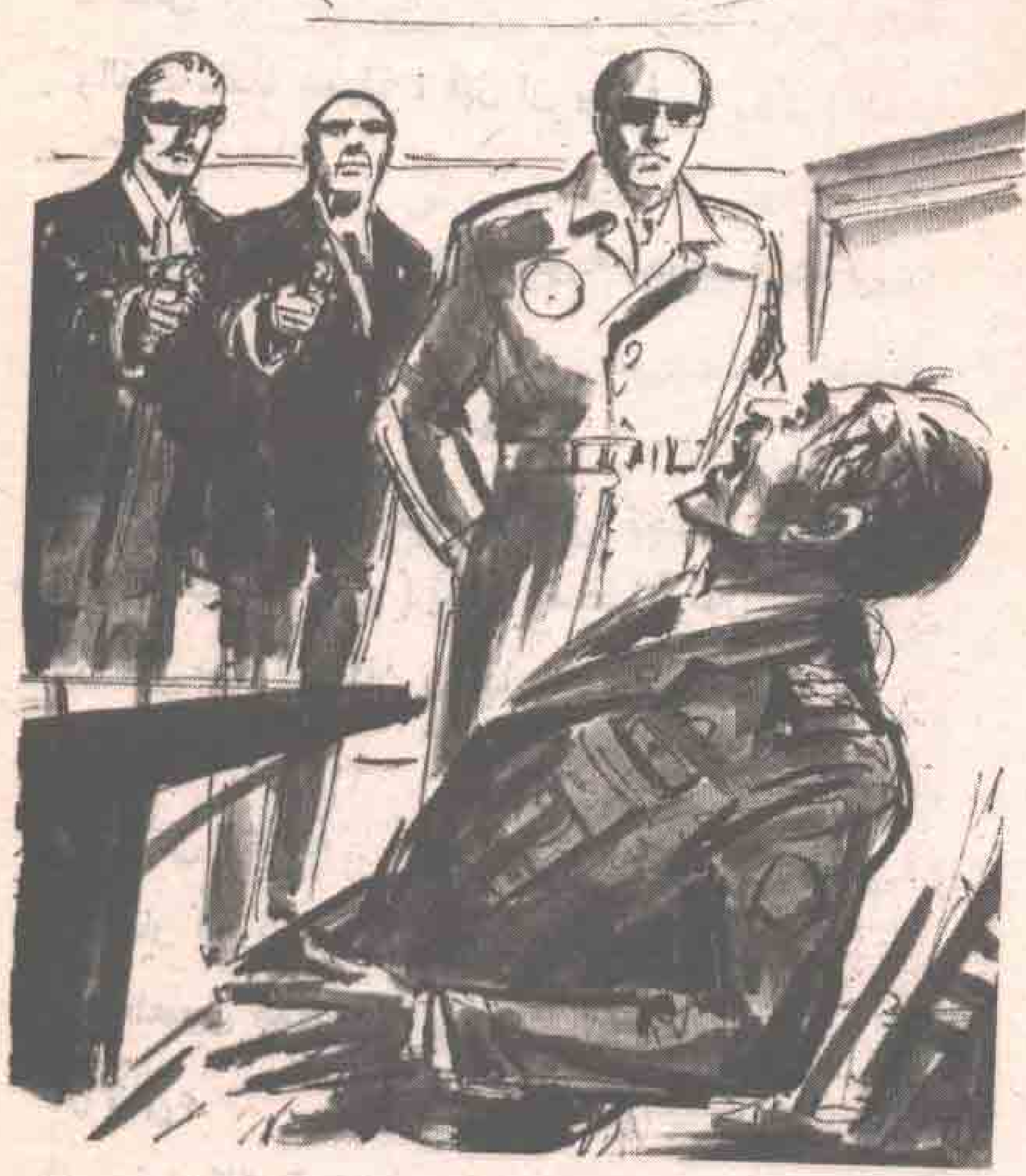
- وهل تعتقد أن المنظمة ستنتظر كل هذا ؟!

بُهت الوزير للقول ، وغمغم :

- ماذا تعنى ؟!

أطلق القائد ضحكة عالية أخرى ، وهو يقول :

- أعنى أن ما حدث فى (موسكو) ، يمكن أن يتكرَّر بحذافيره هنا .



قبل أن يكتمل هتافه ، ضغط الرجلان المصاحبان للوزير زنادى مسدسيهما .. وانطلقت رصاصتاهما !

ثم مال نحوه مستطردًا :

ـ قل لى يا هذا : أيهما تفضّل .. هل نقصف (نيويورك) برأس نووى محدود ، أم أن (لوس أنجلوس) ستكون هدفًا أفضل ؟!

انعقد حاجبا الوزير أكثر، وهو يتطلّع إليه مباشرة ، فى حين عاد القائد يقهقه ، وهو يقول فى شماتة :

ـ لا تنسوا أن المنظمة لا تتخلّى عن رجالها قط .

أجابه الوزير فى صرامة شديدة :

ـ هذا لو أنهم ظلوا على قيد الحياة .

اتسعت عينا القائد ، وهو يهتف :

ـ أيها الـ ...

قبل أن يكتمل هتافه ، ضغط الرجلان المصاحبان للوزير زنادى مسدسيهما ..

وانطلقت رصاصتاهما ..

وجحظت عينا قائد القوات ..

وتفجّرت الدماء من رأسه وصدره ..

ثم هوى كالحجر ..

وفى ازدراء ، قلب الوزير شفتيه ، قائلاً :

- خائن .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

- سابق .

ولم ينطق ضابط القوات الجوية بحرف واحد ..

قط ..

★ ★ ★

هطلت الأمطار فى عنف ، على نحو لم يسبق له مثيل ، وأخذت (منى) تعدو وسط الأدغال ..

كل شىء حولها كان رهيبًا ..

الأشجار العالية ..

الأحراش الكثيفة ..

الأمطار الغزيرة ..

تلك العيون المضيئة ..

كل شىء ..

ثم برزت تلك الوحوش ..

وحوش لم تر لها مثيلاً من قبل ..

حتى فى أبشع كوابيسها ..

وحوش أحاطت بها من كل صوب ..

وبكل رعب الدنيا ، صرخت تهتف باسمه ..

باسم (أدهم) ..

ومع هتافها ، انقضت الوحوش ..

انقضَّت بوحشيتها ، وشراستها ..

بأنيابها ، ومخالبها ، و ...

وهنا ، ظهر هو ..

ظهر فى وسط الأدغال والأمطار ..

ووثب يحميها بجسده ..

بكيانه ..

بحبه ..

وفى هذه المرة ، اختلج قلبها كالطير ، وهى تصرخ باسمه ..

وبكل حب الدنيا ، استدار إليها ..

واحتواها بين ذراعيه ..

و ...

« سنيورا .. استيقظى يا سنيورا »

انتزعتها العبارة من حلمها ، وأيقظت لمحة فى عقلها ، ففتحت عينيها ، وحدّقت فى الرجل الواقف أمامها ، والذى حاول أن يبتسم ، قائلاً :

ـ أخيرًا .

هتفت منزعجة :

ـ من أنت ؟!

ثم تلفتت حولها ، هاتفة :

ـ وأين أنا ؟!

اعتدل ، مجيبًا :

ـ اسمى المفتش (جارسيا) ، وأنت حيث التقينا أوّل مرة .. فى مستشفى (كومانا) .

اتسعت عيناها عن آخرهما ، وهى تعتدل هاتفة :

ـ من أتى بى إلى هنا ؟!

هزّ رأسه ، قائلاً :

ـ سؤال بسيط ، وجواب أكثر بساطة .. لقد عثر عليك فريق البحث ، الذى انطلق لتفقّد ما يحدث فى

الأدغال .. كنت ملقاة على حافة المستنقع هناك ، إلى جوار حطام هليوكوبتر .. من الواضح أنك قد قفزت منها قبيل انفجارها بلحظات .. ومن حسن حظك أن عثر عليك فريق البحث ، قبل أن تلتهمك وحوش المستنقع وتماسيحه ..

سألته بصوت مرتجف :

ـ وماذا عن .. عن الآخرين ؟!

هزّ رأسه مرة أخرى ، وهو يجيب :

ـ لم يكن لهم مثل حظك .

هتفت مذعورة :

ـ ربّاه ! هل تعنى أن ...

قاطعها فى صرامة :

ـ مهلاً يا سنيورا .. يبدو أنك لا تدركين حقيقة الموقف بالضبط .. المفترض أن ألقى أنا الأسئلة هنا .

ثم مال نحوها ، مستطردًا فى حدة :

ـ ماذا كنت تفعلين ، فى قلب الأدغال ؟!

أشاحت بوجهها ، قائلة :

ـ ليس هذا من شأنك .

صاح فى حدة :

ـ بل هو من شأنى يا سنيورا .. أنا المفتش المسئول عن أمن (كوماتا) ، ووحدى سأتحمَّل المسئولية كلها ، لو انقلبت الأمور رأسًا على عقب .

والتقى حاجباه فى صرامة شديدة ، وهو يكرِّر :

ـ ماذا كنت تفعلين فى الأدغال ؟!

أتاه صوت أنثوى صارم من خلفه ، يقول :

ـ نصطاد الفراشات .

استدار فى حدة إلى مصدر الصوت ، وقفز الغضب من كل ذرة في كيانه ، فى حين هتفت (منى) فى دهشة :

ـ دونا ؟!

تقدَّمت (كارولينا) داخل الحجرة ، بزيها البالغ الفخامة والأناقة ، وتبعها رجلان أنيقان ، وهى تقول :

ـ كيف حالك يا (منى) ؟! أما زلت تصرِّين على السعى خلف الخطر ، أينما كان ؟!

هتفت (جارسيا) فى حدة :

ـ هل يمكنكما التحدُّث بالإسبانية ، ما دمتما تجيدانها على هذا النحو ؟!

تجاهلته كلتاهما تمامًا ، و (منى) تسأل (دونا) فى لهفة :

ـ ماذا حدث هناك ؟!

لوَّحت (كارولينا) بيدها فى أناقة ، وهى تجيب فى ضيق :

ـ الكثير .. لقد فتح بعضهم أبواب الجحيم ، وأراق نهرًا من الدم ، خلال فترة الليل فحسب .

جفَّ حلق (منى) ، وهى تسأل :

ـ وماذا عن (أدهم) ؟!

هزَّت (كارولينا) رأسها ، وتنهَّدت قائلة :

ـ لا يوجد أدنى أثر له .

ثم مالت نحوها ، مستطردة :

ـ ولا دليل واحد على وجوده .

حدَّقت (منى) فى وجهها لحظة ، قبل أن تتراجع ، قائلة فى حزم :

ـ إنه هنا .

هتف المفتش (جارسيا) فى غضب :

ـ أين تتصوَّران نفسيكما بالضبط ؟!

التفتت إليه دونا (كارولينا) فى هدوء ، ورمقته بنظرة نارية ، وهى تقول :

ـ قل لى أيها المفتش : هل سمعت من قبل اسم دونا (كارولينا) ؟!

حدَّق المفتش فى وجهها ، فى ارتياع واضح ، وهو يكرِّر :

ـ دونا .. دونا (كارولينا) ؟!

أجابته فى هدوء :

ـ بالضبط .. هل تعرف من هى ؟!

كانت تتطلَّع إلى عينيه مباشرة ، على نحو ارتجفت له أوصاله ، وهو يبذل قصارى جهده ، ليرسم على شفتيه ابتسامة ، جاءت مرتجفة خائفة ، وهو يقول :

ـ هل .. هل تحاولين إيهامى بأنك هى ؟!

قالت فى سخرية :

ـ إيهامك ؟!

جفَّ لعابه على نحو عجيب ، وشعر بغصة فى حلقه ، عندما حاول أن يزدرده ، ثم تراجع فى بطء ، واستدار يلقى نظرة على الرجلينِ المصاحبين لها ، قبل أن يتنحنح فى توتر ، محاولاً الخروج من حالة الهلع ، التى شملته ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، ويقول :

ـ معذرة يا دونا .. كنت أؤدى واجبى فحسب .

عادت تلوِّح بيدها فى أناقة ، قائلة :

ـ رئيسك أعفاك من هذا الواجب .. بقرار رسمى .

هتف :

ـ حقًّا ؟!

ثم ارتبك فى شدَّة ، متابعًا :

ـ أعنى أن هذا أفضل .. أفضل بكثير .

والتفت إلى (منى) ، وانحنى فى احترام بالغ ، وهو يقول :

ـ تمنياتى بالشفاء العاجل يا سنيورا .

قالها ، واندفع يغادر المكان فى سرعة ، وكأنما يطارده ألف ألف شبح ..

وفى عصبية ، قالت (منى) :

ـ من الواضح أن لك تأثيرًا قويًا يا دونا .

ابتسمت (كارولينا) ، وهى تجلس على طرف فراش (منى) ، قائلة :

ـ بلوغ هذا ليس بالأمر السهل .. إنه يحتاج إلى الكثير من الجهد والمال ، و ...

قاطعتها (منى) :

ـ والدم .

صمتت دونا (كارولينا) لحظة ، ثم قالت :

ـ بالتأكيد .

وقبل أن تسمح لـ (منى) بالتعليق ، استطردت فى سرعة :

ـ لدى خبران سيئان للأسف .

انقبض قلب (منى) ، وهى تقول فى خفوت :

ـ ما هما ؟!

أشعلت دونا سيجارة ، وهى تقول :

ـ زميلك لقى مصرعه ، فى انفجار الهليوكوبتر .

ازدردت (منى) لعابها فى صعوبة ، مغمغمة :

ـ المفتش (جارسيا) أخبرنى بهذا .

ثم مالت إلى الأمام ، متسائلة ، وقلبها يخفق مع ارتجافة شفتيها :

ـ ما الخبر الثانى ؟!

تراجعت دونا ، قبل أن تجيب فى حزم :

ـ (سونيا) هنا .

هتفت (منى) :

ـ (سونيا) ؟!

أجابتها دونا فى حزم أكثر :

ـ نعم (سونيا) يا (منى) .. (سونيا جراهام) .. عدوتكم اللدود ، و ...

صمتت لحظة ، ثم أضافت فى توتر :

ـ وزوجة (أدهم) السابقة[*].

انعقد حاجبا (منى) ، وشعرت بقبضة باردة كالثلج تعتصر قلبها ، وهى تقول :

ـ إنها هنا من أجله .

هزّت (دونا) رأسها ، قائلة :

ـ ليس بالضرورة .

هتفت (منى) :

ـ صدقينى .. وجود (سونيا) هنا يعنى أنه هنا .

انعقد حاجبا (دونا) ، وهى تقول :

ـ أو كان هنا .

خفق قلبها بعنف أكثر ، وهى تسأل :

ـ ماذا تعنين ؟!

نهضت ، قائلة فى حزم :

ـ أدغال (كوماتا) شهدت جحيمًا مستعرًا الليلة السابقة ، والفحص الذى أجراه رجالى ، يشير إلى أن فريقًا من القتلة المحترفين كان يطارد شيطانًا .

(*) راجع قصة (جزيرة الجحيم) .. المغامرة رقم ٨٤

غمغمت (منى) :

ـ شيطان ؟!

أومأت دونا برأسها ، قائلة :

ـ مجرَّد تعبير مجازى ، يشير إلى أن خصمهم كان مقاتلاً محترفًا ، خبيرًا ، جعلهم يدورون حول أنفسهم ، وأطاح بخمسة منهم على الأقل ، قبل أن ...

بترت عبارتها ، ونفثت دخان سيجارتها فى قوة ، فهتفت بها (منى) :

ـ قبل ماذا ؟!

تنهَّدت (دونا) ، وهى تتطلَّع إليها لحظات فى صمت ، قبل أن تقول :

ـ قبل أن يختفى .

كاد قلب (منى) يتوقَّف عن النبض فى صدرها ، وهى تردَّد :

ـ يختفى ؟!

نطقتها بصوت لم يسمعه سواها ، من شدّة خفوته وتوتره ، فلوَّحت دونا بذراعها ، قائلة :

ـ لا أحد يدرى ماذا أصابه .. لقد عثرنا على أشلاء عدد من جنود المرتزقة ، داخل وكر عجيب ، فى قلب الأدغال ، ولكنه لم يكن بينهم .

ترقرقت عينا (منى) بالدموع ، وهى تغمغم :

ـ قلت : إنه لا دليل على وجوده .

أجابتها (كارولينا) فى توتر :

ـ هذا صحيح .. كل ما لدينا مجرَّد قرائن .. آثار يمكن تفسيرها بأكثر من وسيلة .

غمغمت (منى) ، وهى تقاوم دموعها فى صعوبة :

ـ إنه هو .

هزَّت (كارولينا) رأسها ، قائلة :

ـ أين ذهب إذن ؟!

انفرجت شفتا (منى) ، وحملتا قدرًا مدهشًا من الحيرة والتوتر ، إلا أنها لم تلبث أن أطبقتهما ، وكأنما لم تجد ما تقوله ، فتنهَّدت دونا ، قائلة :

ـ الشىء الوحيد الذى يحيِّرنى هو أن (سونيا) تعدّ طائرة طبية مجهَّزة ، وكأنها تستعد لنقل مريض ما ، خارج حدود (فنزويلا) .

عاد قلب (منى) يخفق فى عنف ، وهى تقول :

ـ مريض ؟!

أجابتها (كارولينا) :

ـ نعم .. إنها طائرة مجهَّزة بكل الأجهزة والمعدات الطبية الحديثة ، ومستعدة للإقلاع فى أية لحظة ، فى مطار خاص فى ضواحى (كراكاس) .

هبَّت (منى) من فراشها ، وأمسكت كتف دونا ، هاتفة :

ـ إنه هو يا (دونا) .. تلك الأفعى تعلم أن (أدهم) مصاب بشدة ، منذ انفجار قاعدة الصواريخ الإسرائيلية ، فى أدغال (كومانا) ، وهى تستعد لنقله إلى مكان ما ، عندما تظفر به .

قالت (كارولينا) فى حيرة :

ـ ولكن لماذا تتجشَّم كل هذا الجهد ؟! لماذا لا تقتله فحسب ؟!

هزَّت (منى) رأسها فى قوة ، مجيبة :

ـ لن يمكنك فهم (سـونيا) أبدًا ، ولا استيعاب الطبيعة المعقّدة لعلاقتها بـ (أدهم) .. تلك الطبيعة التى جعلتها تظفر به فى (المكسيك) ذات يوم ، وهو فاقد الذاكرة ، فتبذل قصارى جهدها لإقناعه بأنها أنا ، وتقاتل فى استماتة للدفاع عنه ، ثم تتزوّجه فى النهاية ، على الرغم من كونه أعدى أعدائها(*).

مطّت (كارولينا) شفتيها ، مغمغمة :

ـ أنت على حق .. لن يمكننى فهم هذا قط .

هتفت بها (منى) :

ـ دعينا لا نضيع الوقت .. أخرجى رجالك من هنا ، حتى أرتدى ثيابى ، ثم نهرع معًا إلى (كراكاس) ، و...

قبل أن تتمّ عبارتها ، دلف أحد رجال دونا البالغى الأناقة ، إلى حجرتها ، وانحنى يهمس فى أذن زعيمة (المافيا) بكلمات لم تسمعها (منى) ، وإن انعقد لها حاجبا (كارولينا) ، واحتقن معها وجهها فى شدّة ، قبل أن تهتف :

(*) راجع قصة (الرجل الآخر) .. المغامرة رقم ٨١

ـ ربّاه ! لقد رحلت .

امتقع وجه (منى) ، وهى تردّد :

ـ رحلت ؟!

هتفت (كارولينا) :

ـ طائرة (سـونيا) الطبيـة رحلت ، إلى جهة مجهولة .

وهوى قلب (منى) بين قدميها .. كالحجر .

★ ★ ★



٥ - كل القوى ..

رفع مدير المخابرات الروسية وجهه ، الذى انحفرت فيه صرامة دائمة ، إلى الرجل العريض المنكبين ، الأشقر الشعر ، القصير ، ذى العينين الضيقتين ، الذى دلف إلى مكتبه ، وشدَ قامته ، قائلاً :

- فى خدمتك يا سيِّدى .

تطلّع إليه مدير المخابرات الروسى بضع لحظات فى صمت ، قبل أن ينهض ، ويعقد كفيه خلف ظهره ، ثم يتجه إليه ، قائلاً :

- أما زلت تسعى للانتقام من (بريماكوف) يا (سيرجى) ؟!

شدَ رجل المخابرات الروسى الفذ (سيرجى كوربوف) قامته مرة أخرى فى اعتداد ، وهو يقول فى حزم :

- إننى أسعى لخدمة الوطن دائمًا يا سيِّدى .

عاد مدير المخابرات يتطلّع إليه بضع لحظات أخرى فى صمت ، قبل أن يسأله :

- أأنت مستعد للقيام بمهمة انتحارية ؟!

أجابه (سيرجى) :

- أنا مستعد للموت فى سبيل الوطن يا سيِّدى .

أومأ المدير برأسه متفهِّمًا ، وقال :

- لهذا رشحتك لهذه المهمة يا (سيرجى) .

انعقد حاجبا (سيرجى) الكثين ، وهو يستمع إلى رئيسه فى اهتمام ، وهذا الأخير يتابع بصرامته الطبيعية :

- سنصنع فخًا لتلك المنظمة .

ثم راح يتحرَّك فى المكان ، قائلاً :

- إنها عملية بالغة السرية ، لا يعلم بأمرها سوى رئيس الدولة ، ووزير الدفاع ، وأنا وأنت فحسب ، أما كل من سيشارك فيها ، فسيتصوَّر أنها عملية نقل عسكرية فعلية .

أنصت (سيرجى) فى اهتمام ، ورئيسه يتابع :

ـ ففى الساعات الأولى من صباح الغد ، ستنطلق سفينة حربية ، فى المحيط الهادى ، مع معلومات تشير إلى أنها تحمل بعض الرءوس النووية بصورة سرية ، وسيتم تسريب هذه المعلومات ، على نحو يوحى بأنها معلومات سرية للغاية ، فى حين ستبدو السفينة أشبه بسفن الصيد العادية ، وهذا سيسيل لعاب تلك المنظمة حتمًا ، وسيدفعها إلى القيام بعملية قرصنة جديدة ، للاستيلاء على الرءوس النووية .

سأله (سيرجى) فى اهتمام :

ـ وهل سنهاجمهم حينئذ ؟!

صمت المدير لحظة ، ثم أجاب :

ـ من الخطر أن تفعل ، عندما تواجه غوّاصة نووية ، ومقاتلة من طراز (الشبح ـ ٣) ، فمع قوة كهذه ، يمكن سحقك خلال ثوان معدودة ، عند أوّل بادرة للمقاومة .

بدت الحيرة فى عينى (سيرجى) وصوته ، وهو يتساءل :

ـ ماذا علينا أن نفعل إذن ؟!

تطلّع إليه المدير مباشرة ، وقال فى حزم :

ـ أن تنضمَ إليهم .

انعقد حاجبا (سيرجى) فى شدَة ، على نحو يؤكّد عدم استيعابه للأمر، فربّت المدير على كتفه ، قائلاً :

ـ ولدينا خطة مدروسة لهذا .

ثم راح يشرح الخطة لرجل المخابرات (سيرجى كوربوف) ..

وانعقد حاجبا (سيرجى) أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

فلقد كانت الخطة عبقرية ..

وبالغة الخطورة ..

إلى حد مخيف ..

* * *

استرخى (يارون دزرائيلى) فى هدوء ، على مقعده الوثير ، داخل الطائرة الطبية المجهّزة ، التى تنطلق به ، مع (أدهم) الفاقد الوعى ، و (سونيا جراهام) ، إلى جهة لم يعلمها بعد ..

ولم يكن يعنيه كثيرًا أن يعلمها ..

لقد اتخذ قراره ، منذ بضعة أشهر ، بالعمل لحساب منظمة (إكس) ..

وبأن يتوقَّف عن العمل من أجل اليهود ..

و (الموساد) ..

و (إسرائيل) ..

إلى الأبد ..

لقد اتخذ قراره بأن يعمل لصالحه فقط ..

لصالح نفسه ..

مهما كان الثمن ..

وكل ما يعنيه الآن ، هو أنه قد حقَّق نجاحًا جديدًا ..

وظفر بالرجل ، الذى عجز العالم كله عن الظفر به ..

رجل المستحيل ..

صحيح أنه سعى إلى هذا طويلاً ، من مصرع شقيقه (موشى) ، وكل ما يملأ نفسه هو الرغبة فى الثأر ..

أما الآن ، فهناك رغبة أخرى ، أزاحت إلى جوارها كل رغباته القديمة .

الرغبة فى الثراء ..

ولقد وعده مستر (X) بثروة طائلة ، إذا ما أحضر إليه (أدهم صبرى) ..

على قيد الحياة ..

وفى سخرية ظافرة ، ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة ..

لقد حقَّق مهمته ببراعة حقيقية ..

وخاصة عندما لعب دور الثائر الغاضب ، الساعى إلى الثأر .

هذا كفل له كل مساعدة وإمكانيات (الموساد) .

وكل أمواله أيضًا ..

توقَّفت أفكاره ، عندما خرجت (سونيا) من حجرة القيادة ، واتجهت نحوه ، وقالت ، وهى تجلس على مقعد مجاور :

ـ مستر (X) طلب منا التوجّه إلى القاعدة رقم واحد فورًا .



توقَّفت أفكاره ، عندما خرجت (سونيا) من حجرة القيادة ، واتجهت نحوه ..

تساءل فى هدوء :

ـ القاعدة رقم واحد ؟! وأين هى ؟!

صمتت لحظة ، ثم أجابت فى اقتضاب :

ـ (ألاسكا) .

رفع حاجبيه ، ثم خفضهما ، وابتسم فى برود .. متمتمًا :

ـ آه .. يا للبراعة !

ثم التفت إليها ، قائلاً :

ـ ولكن هناك أمر يحيِّرنى يا (سونيا) ..

سألته ، محاولة الاسترخاء فى مقعدها :

ـ وما هو ؟!

تطلَّع إليها بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ أنت .

مطَّت شفتيها ، ودسَّت بينهما واحدة من سجائرها الطويلة الرفيعة ، وأشعلتها بقدَّاحتها الذهبية ، متسائلة :

ـ وما الذى يحيِّرك بشأنى ؟!

أجاب على الفور :

ـ طبيعتك ، التى أعرفها جيدًا ، تجعلنى أتساءل : كيف يمكن أن تعملى لحساب شخص آخر .

انعقد حاجباها ، وهى تنفث دخان سيجارتها ، قائلة :

ـ وماذا فى هذا ؟!

هتف :

ـ ماذا فى هذا ؟! الكثير يا (سونيا) .. (سونيا جراهام) التى أعرفها تركت العمل فى (الموساد) ، لأنها رفضت أن تحكمها قواعد وقوانين إلى الأبد .. (سونيا) التى أعرفها قاتلت بكل قوتها ، حتى تفوز بالثروة والسلطة والقوة .. (سونيا) التى أعرفها لا يمكن أن تخضع لأحد قط .

نفثت دخان سيجارتها ثلاث مرات فى صمت ، قبل أن تقول فى غلظة :

ـ ولماذا تطلق عليه اسم خضوع ؟! لماذا لا تقول : إنها وسيلة لاستعادة كل ما فقدته ، فى الآونة الأخيرة ؟!

هزَّ رأسه ، قائلاً :

ـ عقلى يرفض تصديق هذا .

قالت فى صرامة :

ـ حاول أن تقنعه بتصديقه .

استرخى فى مقعده ، قائلاً :

ـ حاولى أنت إقناعى .. حاولى شرح السبب الذى يدفعك إلى الإبقاء على عدوك اللدود (أدهم صبرى) ، لمجرَّد أن السيد (X) أمر بهذا .

قالت فى حدة :

ـ لا تنس أن (أدهم صبرى) هذا هو أبو ابنى الوحيد .

انطلقت من حلقه ضحكة عالية ، قبل أن يقول :

ـ ابنك .. هل تصدقين أنت هذا التبرير يا (سونيا) ؟!

انعقد حاجباها فى شدَة لبعض الوقت ، قبل أن تلقى سيجارتها فى عنف ، ثم تلتفت إليه ، قائلة فى صرامة :

ـ اسمع يا (بارون) .. ربما لا يكون بإمكانى أن أشرح لك أسبابى الآن ، ولكن هناك أمرًا ، ينبغى أن تتأكَّد منه تمامًا ، ما دمت تقول : إنك تعرفنى جيدًا ..

وبدت ملامحها الجميلة مخيفة ، وهى تضيف :

ـ (سونيا جراهام) تربح دائمًا فى النهاية .

قالتها ، وأشعلت سيجارة جديدة ، وراحت تنفث دخانها فى قوة ..

أما هو ، فلم يلق سؤالاً آخر ..

لقد استرخى أكثر وأكثر فى مقعده ، وترك الطائرة تحملهم جميعًا إلى القاعدة رقم واحد ، لمنظمة (إكس) ..

إلى (ألاسكا) ..

★ ★ ★

لم تكد الطائرة القادمة من (تل أبيب) تهبط ، فى مطار (نيويورك) ، حتى بدأ عدد من التحركات المدروسة ، على نحو مدهش ..

ففى وقت واحد تقريبًا ، كان أحد عملاء (الموساد) يفحص كشوف القادمين ، وآخر يراقب منطقة الجوازات ، وثالث يراجع بيانات الكمبيوتر ، ورابع يراقب الطائرة من شرفة الانتظار بمنظار مقرِّب ،

وخامس يوزِّع رجاله فى مبنى المطار ، لتأمين كل المداخل والمخارج بمنتهى الحزم والدقة ..

والأكثر مدعاة للدهشة هو أن كل هذا لم يكن يتم ، من أجل الإيقاع بمجرم بالغ الخطورة ، أو جاسوس من الطراز الأوَّل ..

وإنما كان الجميع فى انتظار طفل ..

طفل صغير ، يُنتظر وصوله ، على الطائرة القادمة من (تل أبيب) ..

هذا لأنه لم يكن طفلاً عاديًا ..

لقد كان الابن الوحيد لاثنين من أقوى وأخطر رجال المخابرات ، فى العالم أجمع ..

المصرى (أدهم صبرى) ..

والإسرائيلية (سونيا جراهام) ..

ولقد اعتبرت المخابرات الإسرائيلية أن الظفر بذلك الطفل ، يعنى السيطرة على نقطة الضعف الكبرى ، فى حياة كل منهما ..

(أدهم) و (سونيا) ..

لذا ، فقد جنَّدت كل رجالها ..

كل إمكانياتها ..

وكل قوتها ، للظفر به ..

وعندما وصلت طائرة (تل أبيب) ، كان المبنى الذى ستهبط عنده ، فى مطار (جى. إف. كيه)(*) قد تحوَّل إلى قلعة حصينة ..

وتعلَّقت عيون الجميع بكل من يغادرها ..

واحدًا .. واحدًا ..

وفى يد كل منهم ، كانت هناك صورة للطفل ..

وراح ركاب الطائرة يهبطون ..

ويهبطون ..

ويهبطون ..

والعيون تراقب بمنتهى الدقة ..

والترقُّب ..

والتحفُّز ..

(★) (جى. إف. كيه) : المطار الرئيسى فى (نيويورك) ، وهو يتكوَّن من عدد كبير من المهابط والمبانى .

ولكن الطفل لم يكن هناك ..

لقد غادر الطائرة سبعة أطفال ..

ثلاثة منهم فى مثل عمره تقريبًا ..

ولكنه لم يكن أحدهم ..

أبدًا ..

« ماذا تعنى بأنه لم يكن هناك ؟! »

صرخ (زيلمان) بالعبارة ، فى غضب هادر ، وهو يدقّ سطح مكتبه بقبضته ، فأتاه الجواب من (نيويورك) ، عبر الهاتف :

ـ لقد فحصنا الجميع يا سيِّدى ، وتحرينا عن كل طفل فى مثل عمره ، ولكنه لم يصل على هذه الطائرة .

هتف (زيلمان) فى غضب :

ـ مستحيل ! الطائرة لم تتوقَّف فى أى مكان .. لقد انطلقت من (تل أبيب) إلى (نيويورك) مباشرة ، واسم الطفل كان على قائمة المسافرين ، ومن الطبيعى أن يصل إلى هناك .

تردَّد الرجل بضع لحظات ، قبل أن يقول :

- ربما لم يستقل الطائرة .

انعقد حاجبا (زيلمان) ، وهو يهتف فى غضب :

- لم يستقل الطائرة ؟! أى قول أحمق هذا يا رجل ؟! قلت لك : إن اسمه كان على قائمة المسافرين .

أشار إليه (بيكويك) ، الذى دلف إلى الحجرة فى صمت ، فرفع عينيه إليه فى تساؤل عصبى ، جعله يغمغم :

- ربما كان الرجل على حق .

هتف به (زيلمان) :

- وكيف هذا أيها العبقرى ؟!

أشار إليه (بيكويك) أن ينهى المحادثة أولاً ، فقال (زيلمان) لمحدثه فى خشونة :

- فليكن يا هذا .. سنبحث الأمر .. عاود الاتصال بعد خمس عشرة دقيقة من الآن .

وأنهى المحادثة فى حدة ، وهو يسأل مساعده :

- ماذا هناك ؟!

ازدرد (بيكويك) لعابه فى صعوبة ، وهو يقول :

- يبدو أننا تعرضنا لخدعة يا أدون (زيلمان) .

بدت أنفاس (زيلمان) مبهورة ، وهو يهتف مستنكرًا :

- خدعة ؟!

أومأ (بيكويك) برأسه إيجابًا ، وقال :

- قائمة المسافرين تؤخذ من خلال كمبيوتر الحجز ، وليس من داخل الطائرة فعليًّا ، وهذا يعنى أن كل من قام بإجراءات السفر ، وحصل على رقم مقعد داخل الطائرة ، يوضع اسمه فى قائمة المسافرين ، بغض النظر عن صعوده فعليًا إلى الطائرة أولاً .

استوعب (زيلمان) الموقف كله دفعة واحدة ، فاتسعت عيناه ، وهو يقول :

- أتعنى أن الطفل لم يغادر (إسرائيل) .

زفر (بيكويك) ، مجيبًا :

- بل غادرها يا أدون (زيلمان) .

هتف (زيلمان) فى حدة عصبية :

- غادرها أم لم يغادرها .. أريد جوابًا مباشرًا واضحًا .

أجابه (بيكويك) فى توتر :

ـ لقد غادرها يا أدون (زيلمان) ، ولكن ليس إلى (نيويورك) ، فلقد قام أحدهم بحجز تذكرة له ، على الطائرة المسافرة إلى (نيويورك) ، وأخرى على طائرة (أمستردام) ، التى تسبقها بنصف الساعة فحسب ، وقام بإتمام إجراءات السفر على الطائرتين ، ثم سافر مع الطفل ، على طائرة (أمستردام) ، بجواز سفر مختلف ، يحمل اسمًا مستعارًا ، ولولا أن إجراءات السفر الجديدة تتضمَّن صورة المسافر ، لما أمكننا كشف هذا الأمر قط .

اتسعت عينا (زيلمان) أكثر ، وخُيِّل إليه أن مقعده يبتلعه ، وهو يقول ، فى صوت بالغ الخفوت :

ـ إذن فالطفل الآن فى (أمستردام) .

هزَّ (بيكويك) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ كل ما نعلمه ، هو أنه قد وصل مع مرافقه إلى هناك ، ثم اختفى أثره بعدها تمامًا .. ربما عبرا الحدود بسيارة ما إلى (بروكسل) ، أو استقلاَّ طائرة خاصة إلى (روما) أو (بون) .. لا أحد يدرى .. المهم أننا قد فقدنا أثره تمامًا .

ارتجفت شفتا (زيلمان) ، وهو يحدِّق فيه ذاهلاً مستنكرًا ، قبل أن يتمتم :

ـ مستحيل ! لا يمكن أن تسخر منا (سونيا جراهام) بهذه البساطة .. إننا أقوى جهاز مخابرات فى العالم .. لا يمكن أن تفعل بنا هذا .

غمغم (بيكويك) :

ـ لقد فعلته .

احتقن وجه (زيلمان) بشدَّة ، وهو يهتف :

ـ لن نسمح لها بهذا ..

ثم هبَّ من مقعده ، مستطردًا :

ـ ارسل إلى رجالنا فى (أمستردام) ، و ...

قاطعه صوت صارم قاس ، يقول :

ـ كفى يا (زيلمان) .

أدار عينيه فى حركة حادة إلى مصدر الصوت ، ثم ارتفع حاجباه فى دهشة بالغة ، وهو يهتف :

ـ سيادة رئيس الوزراء ؟! كيف لم يبلغنا أحد ..

تمتم (بيكويك) فى خفوت :

ـ إنك لم تمنحنى الفرصة لأخبرك يا أدون (زيلمان) .

رمقه (زيلمان) بنظرة نارية غاضبة ، قبل أن يرسم على شفتيه ابتسامة باهتة ، ويقول :

ـ مرحبًا بك على أية حال يا سيادة رئيس الوزراء .. الواقع أننى ..

قاطعه رئيس الوزراء فى حدة :

ـ الواقع أنك ضربت بأوامرى عرض الحائط ، ورحت تتصرَّف وحدك ، كما لو أنه لا توجد أية سلطة فى (إسرائيل) كلها سواك ، وضاعفت من مشكلاتى العديدة ، فى مرحلة الانتخابات الحرجة هذه .. ما الذى تسعى إليه بالضبط ؟! أن يتفوَّق علىَّ خصومى ؟! ألا تعلم أنهم يتحدون الآن لمواجهتى ، وأن بعضهم قد ينسحب من المعركة ، ليتيح للآخرين فرصة أكبر للفوز ؟! ألا يكفيك كل هذا لتصرَّ على مطاردتك السخيفة وغير المنطقية ، لابن أكبر مموِّل لحملتى ؟!

هتف (زيلمان) فى غضب :

ـ من تطلق عليها لقب أكبر مموِّل لحملتك ، هى فى الواقع واحدة من أخطر جواسيس العصر .

صاح رئيس الوزراء الإسرائيلى فى حدة :

ـ إياك أن تصفها بهذا .. هل تحاول الإيحاء بأن الجواسيس يمولون حملة إعادة انتخابى .

هتف (زيلمان) :

ـ بل أحاول تبصيرك بالأمر .

صرخ رئيس الوزراء :

ـ أنا أبصر كل ما يدور حولى جيِّدًا ، وأعلم أنك تتجاهل موقفًا ناريًّا ، يشتعل معه العالم أجمع ، لتطارد طفلاً صغيرًا .

قال (زيلمان) فى عصبية :

ـ أنت لا تدرك ما يمثله ذلك الطفل .

صاح رئيس الوزراء :

ـ بل أدرك جيِّدًا يا (زيلمان) .. إنه يمثل سخافتك واستهتارك، وعدم تقديرك للمسئولية، واهتمامك بقضايا شخصية ، على حساب أمن وسلامة (إسرائيل) .

هتف (زيلمان) :

ـ سيادة رئيس الوزراء ..

قاطعه رئيس الوزراء الإسرائيلى بصيحة هادرة :

ـ كفى يا (زيلمان) .

ثم عقد كفيه خلف ظهره ، مستطردًا فى صرامة :

ـ إننى أعزلك من منصبك .

انتفض جسد (زيلمان) فى عنف ، وكأنما أصابته صاعقة ، وهتف :

ـ تعزلنى ؟!

ثم صاح فى غضب :

ـ ليس هذا من حقك .

أجابه رئيس الوزراء فى صرامة أكثر :

ـ القانون يمنحنى هذا الحق يا (زيلمان) ، خاصة وأننى مازلت أحتلّ منصبى .. إننى أعزلك بقرار قانونى تمامًا ، وسيحل (بيكويك) محلك ، كمدير لجهاز الاستخبارات الإسرائيلى .

رمق (زيلمان) (بيكويك) بنظرة نارية ، فى حين ابتسم هذا الأخير ابتسامة ظافرة ، لم يستطع إخفاءها ، ورئيس الوزراء الإسرائيلى يواصل :

ـ (بيكويك) المخلص الأمين ، الذى خشى على أمن وسلامة (إسرائيل) ، وكشف استهتارك وسخافاتك .

اتسعت عينا (زيلمان) فى ارتياع ، فى حين احتفظ (بيكويك) بابتسامته الظافرة الشامتة ، وهو يتجه إلى مكتب رئيسه فى هدوء ، وكأنما لا يطيق صبرًا على احتلال مقعده ..

وفى صرامة أشدّ ، قال رئيس الوزراء ، وهو يواجه (زيلمان) :

ـ منذ هذه اللحظة ، لا عودة لعملية ابن (مادلين أوهارا) هذا .. لقد تم إغلاق هذا الملف إلى الأبد .. دعونا نهتمّ فقط بأمن وسلامة (إسرائيل) .

ثم استدار إلى (بيكويك) ، مضيفًا :

ـ أليس كذلك يا مدير (الموساد) الجديد ؟!

اتسعت ابتسامة (بيكويك) ، وانتفخت أوداجه فى

زهو ، وهو يجلس بالفعل على مقعد المدير ، وعيناه تتألقان ببريق لامع ..

وظافر ..

* * *

التقط (أدهم) نفسًا عميقًا ، امتلأ به صدره عن آخره ، وهو يستعيد وعيه هذه المرة ..

كان هناك ضباب عجيب يحيط بعقله ، ويجثم على أنفاسه ، ويحجب عنه وضوح الرؤية والتفكير ..

ضباب سيطر على كيانه كله تقريبًا ..

وفى صعوبة ، فتح عينيه ، وحاول أن يستوعب موقعه ..

الشىء الوحيد المؤكَّد ، هو أنه لم يعد فى أدغال (كومانا) ..

جهاز التدفئة الكبير فى حجرته يشفَّ عن هذا فى وضوح .

إنك لن تحتاج قط إلى جهاز تدفئة ، فى قلب أدغال استوائية ..

حتى فى منتصف فصل الشتاء ..

ثم إن كل ما حوله نظيف ، إلى درجة تفوق المعتاد ..

مرة أخرى أغلق عينيه ، محاولاً انعاش ذهنه ..

وفى بطء ، راح الضباب ينحسر ..

وينحسر ..

وينحسر ..

وأخذ عقله يصفو ..

ويصفو ..

ويصفو ..

لذا ، فقد فتح عينيه مرة أخرى ، ليستوعب ما حوله جيِّدًا ..

كانت حجرة تشبه كثيرًا تلك التى احتجزوه فيها هناك ..

فى أدغال (كومانا) ..

حجرة بلا نوافذ ..

ولها باب واحد ..

الفارق هو أنه لم تكن هناك كاميرات مراقبة ..

ليس بصورة واضحة على الأقل ..
ثم إنه لا توجد أجهزة طبية ..
أو أية أجهزة ، من أى نوع ..
ولا توجد حتى أجهزة إنذار ضد الحريق ..
وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، وهو يغمغم :
- بعضهم لا يريد تكرار ما حدث سابقًا .
وعندما حاول أن ينهض من فراشه ، كان يتوقَّع أن يجد نفسه مقيَّدًا إليه ..
ولكن هذا لم يكن صحيحًا ..
لم تكن هناك أية قيود ، تربطه إلى الفراش ..
ولكن كان هناك ذلك الطوق العجيب حول عنقه ..
طوق رفيع مستدير ، لا يزيد سمكه على سنتيمتر واحد ، يحيط بعنقه فى إحكام ، ويلتقى طرفاه عند كرة صغيرة ، يومض فى منتصفها مصباح دقيق ، على نحو رتيب للغاية .
وفى حذر ، مدّ (أدهم) يده ، يتحسَّس ذلك الطوق الرفيع ..

إنه مصنوع من المعدن ..
النحاس على الأرجح(*) ..
ولكن لماذا هو هنا ؟!
ما مهمته بالضبط ؟!
أمسك به فى قوة ، واستعدّ لجذبه ، عندما باغته صوت مألوف ، يقول :
- حذار أن تحاول .
تعرَّف الصوت وصاحبته ، قبل حتى أن يستدير إليها ، قائلاً فى هدوء ، يحمل رنة ساخرة :
- ولماذا يا عزيزتى (سونيا) ؟!

(*) النحاس : عنصر فلزى معروف ، رخو نسبيًا ، قابل للطرق والسحب ، رمزه فى جدول العناصر (نح) ، موصل جيّد ، يتغيَّر ببطء فى الهواء ، ويقاوم فعل الأحماض المخففة .. تهرؤه المياه الملحة ، ويستخدم لعمل السقوف ، والأوانى ، والعملات ، والأسلاك الكهربية .. يوجد فى الطبيعة منفردًا ومتحدًا ، ويعدّ من أقدم المعادن ، التى عرفها الإنسان .

كانت تقف خارج باب الحجرة المفتوح على مصراعيه ، عاقدة ساعديها أمام صدرها ، وهى تقول فى شماتة واضحة :

ـ لأنه طوق إليكترونى خاص ، مصمَّم بحيث يبقيك دومًا داخل مسار محدود ، لا يمكنك الخروج منه ، إلا بموافقتنا نحن .

قال ساخرًا :

ـ مسار محدود ؟! أهو المسار نفسه ، الذى اتبعته أنت ، عندما فررت بمشروع (السوبرمان) ، من ذلك الوكر السرى فى (سيبيريا) ، وتركتنا نتساءل جميعًا إذا ما كنت قد لقيت مصرعك أم لا ؟![*]

هزَّت رأسها ، قائلة :

ـ كان ذلك أمرًا يختلف .

ثم رمقته بنظرة مستفزة ، وهى تضيف :

ـ العالم تطوَّر كثيرًا ، منذ ذلك الحين ، والتكنولوجيا صارت جزءًا لا يتجزأ منه .

(*) راجع قصة (وجه الأفعى) .. المغامرة رقم ١٢١

أشار بسبَّابته ، قائلاً :

ـ وهذه أكثر مشكلاته ..

هزَّت رأسها مرة أخرى ، وقالت ، وهى تستند بكتفها إلى الجدار :

ـ على العكس .. هذا أفضل ما فيه ، فالتكنولوجيا ضاعفت من قوة الإنسان وقدراته ، وجعلته أكثر براعة ودقة ، فى التعامل مع كل ما حوله .

ثم رفعت أحد حاجبيها وخفضته ، مضيفة :

ـ ومن حوله .

ابتسم ، قائلاً :

ـ أشك .

ثم اتجه نحوها ، متابعًا :

ـ فالإنسان سيظلَ الأقوى ، مهما بلغت التكنولوجيا من قوة وتقدم .

قالت فى هدوء ، وهى تتابعه ببصرها :

ـ لو أننى فى موضعك ، لما تجاوزت هذا الباب .

أجابها فى هدوء ، وهو يواصل طريقه نحوها :

ـ خطأ يا عزيزتى (سونيا) ، فلو أنك فى موضعى ، لتجاوزته حتمًا .. على الأقل لمعرفة ما سيحدث عندئذ .

نطق كلماته الأخيرة ، وهو يتجاوز الباب بالفعل ..

ولم يكد يفعل ، حتى انطلق من الطوق المحيط بعنقه أزيز متصل ، امتزج بصوت (سونيا) الشامت ، وهى تقول :

ـ لقد حذَّرتك .

ومع آخر حروف كلماتها ، انكمش الطوق المعدنى بغتة ..

واعتصر عنق (أدهم) ..

فى عنف ..

وكان الألم رهيبًا ..

إلى حد مخيف ..

وقاتل .

* * *





ومع آخر حروف كلماتها ، انكمش الطوق المعدنى بغتة .. واعتصر عنق (أدهم) .. فى عنف .. وكان الألم رهيبًا .. إلى حد مخيف ..

٦ ـ قراصنة المحيط..

التقط (سيرجى كوربون) نفسًا عميقًا ، مشبعًا برائحة اليود والملح ، والسفينة العسكرية الروسية تمخر به عباب المحيط الهادى ، حاملة تلك الشحنة الوهمية من الصواريخ ، ذات الرءوس النووية ..

وفى نشاط جم ، راح أفراد الطاقم ، من بحَّارة الأسطول ، ينتشرون على السطح ، وداخل السفينة ، للقيام بواجباتهم اللازمة للإبحار ، ولحماية شحنتهم الثمينة ، التى لا يدرى أحد حقيقتها ، سوى (سيرجى) وحده ..

وبالنسبة لهذا الأخير ، كان هناك فيض من التساؤلات ، يعربد فى رأسه بلا هوادة ..

تُرى هل ستفلح الخدعة ؟!

هل سينجح الفخ فى اجتذاب القراصنة الجدد ؟!

هل سيغريهم بالقيام بعملية أخرى ، من عملياتهم الجريئة ، للاستيلاء على ما سيتصوَّرونه كنزًا من الرءوس النووية ؟!

هل ؟!

شىء ما فى أعماقه كان يشعر بأن هذا لن يحدث ..

شىء ما يصرَ على أنهم أكثر ذكاءً وبراعة من هذا ..

من أن يسقطوا فى فخ مباشر إلى هذا الحد ..

تحركاتهم السابقة كلها تؤكَّد أن لديهم عيونًا فى كل مكان ..

وآذان فى كل جدار ..

وأنهم منتشرون كأذرع أخطبوط ضخم ، فى بحيرة صغيرة ..

ربما كانت هذه المرة تختلف ..

أو أنها كذلك حتمًا ..

فلا أحد يعلم حقيقة الأمر سوى أربعة ..

وكلهم لا يمكن أن يتطرَّق إليهم الشك لحظة واحدة ..

وهذا يعنى أن المنظمة ستجهل الحقيقة ..

وربما يدفعها هذا إلى القيام بعمليتها ..
والوقوع فى الفخ ..
ربما ..

وعلى الرغم من طبيعته الصارمة الباردة ، شعر برجفة تسرى فى جسده ، وهو يراقب سطح المحيط بمنظاره المقرَّب ..

كل شىء يبدو هادئًا ..
صامتًا ..
ساكنًا ..

كل شىء لا يوحى قط بمحاولة قرصنة ..
بأية محاولة ..

المحيط يمتدّ أمامهم بلا أمواج ..
والشمس تشرق فى الأفق ..
وتصعد إلى السماء فى هدوء ..
و ...

« رسالة لاسلكية عاجلة يا سيِّد (كوربوف) .. »
قاطعه ضابط اللاسلكى بالعبارة ، وانتزعه من

أفكاره وتساؤلاته ، فالتفت إليه فى بطء ، وسمعه يكمل ، بلهجة حملت الكثير من الحيرة :

- على الموجة الخاصة .

انعقد حاجبا (سيرجى) الكثين ، وهو يتطلّع إلى الرجل .

هذه الموجة الخاصة معدّة للطوارئ القصوى فحسب ..
وهى سرية ..
سرية للغاية ..

والمفترض ألا يتلقَّى أية رسائل عبرها ، سوى فى ظروف خاصة ودقيقة ..
للغاية ..

وحتى ضابط اللاسلكى يعلم هذا ، فقد ناوله مسماع الاتصال ، ثم ابتعد فى سرعة ، مدركًا أنه لا يحق له البقاء أو الإنصات ..
مطلقًا ..

وفى توتر، وضع (سيرجى) المسماع على أذنيه ، وقال :

ـ هنا ذئب الثلوج رقم ..

قاطعه صوت مألوف ، يقول فى سخرية :

ـ لا داعى لتغيير صوتك يا ذئب الثلوج العجوز .. سأتعرَّفه مهما فعلت .

انعقد حاجبا (سيرجى) فى شدّة ، وهو يهتف :

ـ أنت ؟!

نقل إليه جهاز الاتصال اللاسلكى ضحكة عالية مجلجلة ، حملت صوت ولهجة وغطرسة الجنرال (يورى بريماكوف) ، رئيس أركان القوات البحرية الروسية السابق ، قبل أن يقول :

ـ نعم .. هو أنا يا (كوربوف) .. طريف منك أن تتعرَّفنى كما تعرَّفتك ..

سأله (سيرجى) فى غلظة :

ـ كيف أمكنك الاتصال على هذه الموجة ؟!

قهقه (بريماكوف) ضاحكًا مرة أخرى ، وقال :

ـ أنسيت أننى رئيس أركان القوات البحرية السابق؟! أليست حماقة منكم أن تواصلوا استخدام الموجة

نفسها ، التى كنا نستخدمها قديمًا ، فى حالات الطوارئ ؟! ينبغى أن تدركوا أن العالم قد تطوَّر كثيرًا ، وأنه هناك موجات أكثر دقة وسرية ، عندما تستخدمون وسائل الاتصال الرقمية الحديثة .

شعر (سيرجى) بغضب حقيقى ، وهو يقول :

ـ ماذا تريد بالضبط يا جنرال ؟!

أجابه (بريماكوف) فى سخرية :

ـ أريد أن أخبرك أن خدعتكم السخيفة هذه لن تنطلى علينا قط .

احتقن وجه (سيرجى) ، وهو يقول :

ـ أية خدعة ؟!

أجابه الجنرال فى سرعة :

ـ محاولة إيهامنا بأنكم تنقلون شحنة من الرءوس النووية .

صمت (سيرجى) لحظة ، ابتلع خلالها غضبه الهادر ، قبل أن يقول :

ـ لست أفهم شيئًا .

أطلق (بريماكوف) ضحكة ساخرة أخرى ، وقال :

ـ بل تفهم أيها الذئب العجوز .. صحيح أنكم أجدتم اللعبة ، عندما تظاهرتم بأن عملية النقل سرية ، وسرَّبتم أخبارها بوسيلة خبيثة ، حتى تبلغ مسامعنا ، وكأنها تأتى عبر ثقب غير ملحوظ ، فى جهاز معلوماتكم الحديدى ، ولكنكم نسيتم نقطة واحدة .

لم ينبس (سيرجى) بحرف واحد ، فتابع (بريماكوف) بنفس السخرية :

ـ أنه ليس من المنطقى أن تختاروا لعملية نقل بالغة الخطورة كهذه ، موعدًا بلغت فيه قوتنا ذروتها ، وقفزت سيطرتنا على المحيط حدّها الأقصى .. صحيح أنكم حمقى ، ولكن ليس إلى هذا الحد .

قالها ، وعاد يقهقه على نحوٍ نجح فى استفزاز (سيرجى كوربوف) ، الذى يلقّبه رفاقه بالأفعى المجمَّدة ، فقال فى حدة :

ـ صدقنى أيها الوغد .. أيامك فى الدنيا أصبحت معدودة .

صمت (بريماكوف) لحظة ، ثم أجاب فى صرامة :

ـ وصدقنى أنت يا (كوربوف) .. لم تعد لديك أية أيام فى هذه الدنيا .

ثم أضاف فى شراسة :

ـ أو حتى ساعات .

انعقد حاجبا (سيرجى) فى شدَّة ، وهو يدير عينيه فى سرعة إلى شاشة السونار (*) ..

لم تكن هناك أية علامة ، تشير إلى وجود غوّاصة فى الأفق ..

(*) السونار : جهاز يشبه الرادار ، ولكن يستخدم الموجات الصوتية ، بدلاً من اللاسلكية ، وهو يستخدم عادة فى السفن ، لتحديد الأجسام القريبة منها فى الضباب ، وفى الغوّاصات لقياس العمق ، وهو يعتمد على إطلاق ذبذبات فوق صوتية منتظمة ، وإعادة استقبالها ، وتحديد العمق أو المسافة ، بقياس الزمن ما بين الإرسال والاستقبال .

ليس فى محيط مائة ميل بحرى على الأقل(*)..

ولكن الجنرال (بريماكوف) يتحدَّث بثقة عجيبة ..

ثقة توحى بأنه على مسافة أميال بحرية معدودة ..

ومحدودة ..

وهذا مستحيل !

من الناحية المنطقية ..

والعلمية ..

والعملية أيضًا ..

« بل ربما لم تتبق لك دقائق معدودة يا (كوربوف) .. »

انتزعه (بريماكوف) من أفكاره بعبارته هذه ، فانتفض جسده ، وهو يقول فى غضب :

ـ تبجُّح لا منطقى يا جنرال .. شاشة السونار أمامى مباشرة ، وليست عليها أية إشارة لـ ...

(*) الميل البحرى هو وحدة القياس بالنسبة للسفن والمركبات البحرية ، وهو يساوى ١٨٥٤ مترًا تقريبًا .

قاطعته ضحكة ساخرة من (بريماكوف) ، وهو يقول :

ـ السونار ؟! من الواضح أنك لم تستذكر دروسك جيِّدًا ، فى الآونة الأخيرة يا (كوربوف) .. هل نسيت أن الغواصات النووية الحديثة مزوَّدة بجهاز موجات عكسى ، يلغى عمل أجهزة السونار تمامًا ، فلا يمكن رصدها ، حتى مسافة مائتى متر من الهدف .

انعقد حاجبا (سيرجى) ، وهو يقول :

ـ هل تعنى أن ...

قاطعه (بريماكوف) فى سخرية شامتة :

بالتأكيد يا (كوربوف) .. نحن على مسافة ثلاثمائة متر فحسب منكم ، وطوربيداتنا مصوَّبة إليكم .

انعقد حاجبا (سيرجى) لحظة ، ثم ألقى مسماع اللاسلكى ، وانطلق يعدو بكل قوته مبتعدًا ، وصوت (بريماكوف) يتصاعد من الجهاز ، قائلاً :

ـ الوداع أيها الذئب المتحذلق العجوز .. يبدو أننا لن نلتقى مرة أخرى ، كما كنت تتمنى .

نطقها ، وأطلق ضحكة عالية مجلجلة تردَّد صداها عبر اللاسلكى ..

ثم انطلق الطوربيد ..

وانطلق نحو الهدف ..

وكان الانفجار عنيفًا ..

للغاية ..

وفى سرعة ، راحت السفينة الروسية تغوص فى أعماق المحيط الهادى ، وجهاز اللاسلكى فيها ما زال يردِّد ضحكات الجنرال (بريماكوف) ، ممتزجة بصراخ طاقمها ..

ثم ابتلعتها المياه تمامًا ..

وسكتَت كل الأصوات ..

بلا استثناء ..

★ ★ ★

على الرغم من أن ذلك الطوق كان يعتصر عنق (أدهم) فى قسوة وعنف ، ويحجب عن صدره كل ذرة هواء ، إلا أن (سونيا جراهام) لم تبد حراكًا ،

وإنما تألَّقت عيناها فى لذة وحشية عجيبة ، وهى تراقب (أدهم) ، الذى احتقن وجهه فى شدَة ، وراح يجاهد لالتقاط نفس واحد ، وهو يمد يده ، ليجذب ذلك الطوق عن عنقه ..

وما إن لمسته أصابعه ، حتى سرى فى جسده شىء أشبه بصاعقة محدودة ، أطلقت آلامًا رهيبة ، فى كل ذرة من كيانه ..

وكان من الواضح أن ذلك الطوق يحمل مهمة واحدة..

أن يمنعه من تجاوز نطاق محدود ..

حتى ولو أدَى هذا إلى قتله ..

بلا رحمة ..

الوسيلة الوحيدة للنجاة إذن ، هى ألا يتجاوز ذلك النطاق ..

أو أن يعود إليه ..

وهذا ما فعله (أدهم) بالضبط ..

لقد تراجع فى سرعة ، اختلّ معها توازنه ، فسقط أرضًا ، وقد بلغ احتقان وجهه ذروته ، وبدا وكأنه سيلفظ أنفاسه الأخيرة ..

ثم راح الأزيز يخفت ..

وعاد الطوق يتسع ..

واندفعت أنفاس الحياة مرة أخرى ، إلى صدر (أدهم) ، (سونيا) تقول فى شماتة ساخرة :

ـ كلى ثقة فى أن ذكاءك قد جعلك تستوعب الدرس فى سرعة يا عزيزى (أدهم) ، فالطوق الذى يحيط بعنقك هو أحدث نظم الأمن فى العالم ، وهو مبرمج بحيث لا يمكنك انتزاعه قط ، وكلما حاولت ، ستتلقى صاعقة متزايدة ، تتضاعف شدتها فى كل مرة ، حتى تبلغ حدًا قاتلاً ، بعد المحاولة الرابعة ، وفى الوقت ذاته ، يرتبط هذا الطوق بدائرة إليكترونية خاصة ، بحيث يتحتم عليك أن تتبع مسارًا محدودًا طوال الوقت ، ولا يمكنك أن تتجاوز أية خطوط حمراء ، فى أى مكان هنا ، وإلا انضغط الطوق ، واعتصر عنقك بلا رحمة ..

لهث ، وهو يقول :

ـ هل ينبغى أن أصفق إعجابًا ؟!

اتسعت ابتسامتها ، وهى تجيب :

ـ بل يكفى أن تلتزم بالحدود فحسب .

ورمقته بنظرة متشفية ، مضيفة :

ـ أرأيت كم هى عظيمة التكنولوجيا ؟!

التقط نفسًا عميقًا ، وتمتم :

ـ من يدرى ؟

أطلقت ضحكة عابثة قصيرة ، ثم اعتدلت ، قائلة :

ـ فليكن يا عزيزى (أدهم) .. أنا واثقة من أنك لن تستسلم للأمر ، وستظل تبحث عن وسيلة للخروج من هذا المأزق ، حتى آخر لحظة فى عمرك .

وصمتت لحظة ، ثم هزَّت كتفيها ، مضيفة :

ـ وهذا يروق لى فى الواقع .

قال فى سخرية :

ـ سأتراجع عنه إذن .

أطلقت ضحكة عابثة أخرى ، وقالت :

ـ هل تعلم .. إننى لن أغلق باب الحجرة .. ولن أضع عليه أى نوع من الحراسة .. بل ولن تكون هناك كاميرات مراقبة ، كما ولا بد أنك قد لاحظت ..

وعادت تهزَ رأسها ، وتتنهَد ، قائلة :

ـ فهذا يجعل التحدَى أكثر قوة .

ورفعت أحد حاجبيها ، مضيفة :

ـ وأكثر إمتاعًا .

قالتها ، ودارت على عقبيها ، لتغادر المكان ، فهتف بها (أدهم) :

ـ لحظة يا (سونيا) .

التفتت إليه متسائلة ، فابتسم فى سخرية ، قائلاً :

ـ ماذا تحبين أن أحضر معى ، عندما آتى لزيارتك فى حجرتك .

أطلقت ضحكة ساخرة عالية ، وقالت :

ـ يكفينى أن تحضر بنفسك يا عزيزى .

بادلها ضحكتها بمثلها ، قائلاً :

ـ وأية لافتة سأجد على باب حجرتك .

ثم مال إلى الأمام ، مضيفًا بلهجة خاصة :

ـ مستر (X) ؟!

ارتفع حاجباها الجميلان ، ثم تراقصت على شفتيها ابتسامة عابثة ، وهى تقول :

ـ أتظنني مستر (X) .

وتفجَرت ابتسامتها فى ضحكة عالية مجلجلة ، تردَد صداها عبر الممر الطويل ، الذى راحت تقطعه مبتعدة ، تاركة (أدهم) خلفها صامتًا ، ينهض من سقطته فى بطء ..

وفى آلية ، وصدى ضحكاتها يتسلَل إلى مسامعه من بعيد ، عبر الباب المفتوح ، عاد يستلقى على فراشه ، وعقله يعمل بسرعة مدهشة ..

إنه لم يجد نفسه أبدًا فى موقف كهذا ..

ولمرتين متتاليتين ، خلال أيام معدودة ..

ولكن يبدو أن موقفه هذه المرة أكثر دقة وصعوبة ، من موقفه السابق ..

ألف مرة ..

ذلك الطوق السخيف يحمل له الموت ، مع كل محاولة فرار ..

وبمنتهى العنف ..

والقسوة ..

ولكن لا ..

إنه ما زال يؤمن بمبدئه القديم ..

لا يوجد نظام أمنى محكم ..

مهما بلغت تعقيداته ..

أو دقته ..

هناك حتمًا ثغرة ما ..

نقطة ضعف ، عليه أن يسعى لكشفها ..

واستغلالها ..

إلى أقصى حد ممكن ..

والعجيب أنه ، فى ظل هذا الموقف العجيب ، ترك جسده كله يسترخى ، فى هدوء مدهش ، وأغلق عينيه ، حتى بدا وكأنه قد استغرق فى نوم عميق ..

ولكن عقله كان يعمل كالصاروخ ..

أو كقنبلة ..

قنبلة نووية ..

لا محدودة ..

* * *

شدَّ وزير الدفاع الروسى قامته ، وهو يستقبل نظيره الأمريكى ، الذى بدا أكثر هدوءًا من ذى قبل ، وهو يقول :

ـ أبلغونى أنك ستعود إلى دولتك بعد قليل يا سيادة الوزير.. أما زلت تصرّ على أن يرتبط قدومك ورحيلك بالمباغتة ؟!

قال الوزير الروسى بصرامته التقليدية :

ـ هناك أمور تحتم عودتى إلى (موسكو) ..

ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتى الأمريكى ، وهو يجلس على مقعد قريب ، قائلاً :

ـ أتقصد إصابة سفينتكم بأحد طوربيدات القراصنة ، وغرقها فى المحيط الهادى ؟!

انعقد حاجبا الروسى فى شدَة ، وهو يقول :

ـ يبدو أن الأخبار تتناقل بسرعة هذه الأيام .

لوَّح الأمريكى بيده ، وقال :

ـ أسرع مما تتصوَّر يا صديقى .

رمقه الروسى بنظرة صارمة ، قائلاً :

ـ بل أسرع مما يمكن تصديقه .

اعتدل الأمريكى ، قائلاً :

ـ ماذا تعنى ؟!

أجابه فى حدة :

ـ أعنى أن وصول الأسرار بهذه السرعة ، قد يوحى بوجود علاقة ما ، بينكم وبين القراصنة .

قال الأمريكى فى غضب :

ـ هل سنعود إلى هذا الهراء ؟!

هتف الروسى :

ـ ليس هراءً .. إنكم تدّعون كونكم أحد ضحايا المنظمة الجديدة ، على الرغم من أنكم أقل المضارين منها .. نحن فقدنا قاعدة عسكرية ، وسفينة من سفن الأسطول ، والمصريون فقدوا ناقلة بترول بكل معداتها وطاقمها ، فماذا فقدتم أنتم ؟!

أجابه الأمريكى فى حدة :

ـ هل ينبغى أن أكرِّر القول ، أم أنك ما زلت تذكر أمر (الشبح ٣) .

هتف الروسى فى سخرية غاضبة :

ـ آه .. أتقصد تلك المقاتلة ، التى تساند الغوّاصة النووية المسروقة منا ، والتى قصفت معسكرنا .

هبَّ الأمريكى من مقعده ، وقال فى صرامة :

ـ اسمع أيها الروسى .. لو أنكم لم تدركوا بعد ، فنحن بالفعل على قمة العالم ، بعد أن انهار نظامكم الشيوعى السخيف ، وانقسمت دولتكم إلى عدة دويلات ضعيفة ، تعانى انهيارًا سياسيًّا واقتصاديًّا ، ولا يوجد سبب واحد ، يدعونا إلى افتعال لعبة سخيفة كهذه ، لتحقيق أى هدف كان ، وهذا لأننا قد حققنا بالفعل كل ما يمكن تحقيقه من أهداف .

انعقد حاجبا الروسى فى شدة ، وهو يقول :

ـ من يدرى ؟!

صاح به الأمريكى :

ـ أنا أدرى .. وأنت تدرى .. والعالم كله يدرى ..

زفر الروسى فى عصبية ، وقال :

ـ كيف حصلتم على تلك المعلومات السرية إذن ؟!

تراجع الأمريكى ، مغمغمًا :

ـ لدينا وسائلنا .

صمت الروسى لحظة ، وأطلَ الشكَ من عينيه ، فهتف الأمريكى :

ـ التى لن نفصح عنها أبدًا .

واصل الروسى صمته ، بضع لحظات أخرى ، ثم قال فى حزم :

ـ السؤال هو : ألديكم كل المعلومات ، أم تلك الخاصة بغرق سفينتنا فحسب ؟!

سأله الأمريكى :

ـ أية معلومات تقصد ؟!

أجابه الروسى فى حذر :

ـ هل تعلمون مثلاً ، كم استغرقت سفينتنا ، لتغوص فى أعماق المحيط ؟!

انعقد حاجبا الأمريكى ، وهو يجيب فى حذر أكثر :

ـ ليست لدى أرقام دقيقة فى هذا الشأن ، ولكننى أظن الأمر لم يتجاوز الدقيقتين .

سأله الروسى ، فى لهفة عجيبة :

ـ تظن ؟!

التقط الأمريكى نفسًا عميقًا ، وأجاب :

ـ إنها دقيقة ونصف تقريبًا .

أدهشه أن بدا الارتياح على وجه الروسى ، وابتسم ابتسامة عجيبة ، وهو يغمغم :

ـ عظيم .

سأله الأمريكى فى توتر :

ـ ما العظيم فى أن تفقدوا سفينة من سفن الأسطول ؟!

اتسعت ابتسامة الروسى ، على نحو ضاعف من استفزازه ، فأضاف فى عصبية وغضب :

ـ أم أنه هناك ما تخفونه ؟!

قال الروسى فى برود :

ـ كل منا لديه ما يخفيه .

هتف الأمريكى فى حنق :

ـ حتى فى موقف كهذا .

سأله الروسى بغتة :

ـ ما مصادر معلوماتكم ؟!

صاح الأمريكى فى حدة :

ـ قلت لك : إننا لن نفصح عنها قط .

استعاد الروسى ابتسامته ، وهو يقول :

ـ أرأيت ؟!

ثم التقط قبعته العسكرية ، وارتداها فى هدوء ، مضيفًا :

ـ هناك أمور لا يمكن الإفصاح عنها قط .

واتجه إلى الباب ، ليغادر الحجرة ، فقفز إليه الأمريكى ، وأمسك ذراعه فى غلظة ، لا تتناسب مع قواعد اللياقة والدبلوماسية ، وهو يقول فى عصبية :

ـ أنتم تخفون شيئًا .. أليس كذلك ؟!

التفت إليه الروسى فى برود ، وقال :

ـ لدينا أساليبنا .

ثم ابتسم فى سخرية ، تتناقض مع طبيعته الصارمة ، وهو يضيف :

ـ التى لن نفصح عنها قط .

قالها ، ودفع الباب ، وغادر المكان ، متجهًا إلى حيث تقبع طائرته فى انتظاره ، تاركًا وزير الدفاع الأمريكى خلفه ، ورأسه يدور بفيض من الأسئلة ..

فيض بلا نهاية ..

أو جواب .

* * *



٧ - الطـوق ..

لم يكد مدير المخابرات المصرية يدلف إلى مكتبه ، فى الحادية عشرة مساءً ، حتى هرع إليه مساعده الشاب ، قائلاً :

- تقرير جديد وصل من (فنزويلا) يا سيِّدى .

سـأله المدير فى اهتمـام ، وهـو يسـتقر خـلف مكتبـه :

- من أرسله ؟!

أجابه مساعده فى أسف :

- لم يعد لدينا سوى الرائد (منى) هناك .

انعقد حاجباه ، وهو يغمغم :

- آه .. هذا صحيح .

ثم مدَ يده يلتقط التقرير ، مستطردًا :

- أتعشَّم أن يحوى أيَة أخبار مشجِّعة هذه المرة .

قال مساعده فى سرعة :

- هناك ما يشير إلى أن العميد (أدهم) كان هناك .

ارتفع حاجبا المدير ، وهو يهتف :

- حقًّا .

وبسرعة دافعها اللهفة والفضول ، راحت عينـاه تلتهمان التقرير، الذى أرسلته (منى) ، قبل أن يقول فى حزم :

- أنا أتفق معها تمامًا فى الرأى .. ليس من المحتـم أن نجد دليلاً ماديًّا ، لنقتنـع بـأن أولئك الرجال كـانوا يطـاردون (أدهـم) .. مـن غـيره يمكـن أن يحيـل الأدغال إلى جحيم ، على هذا النحو ..

سأله مساعده :

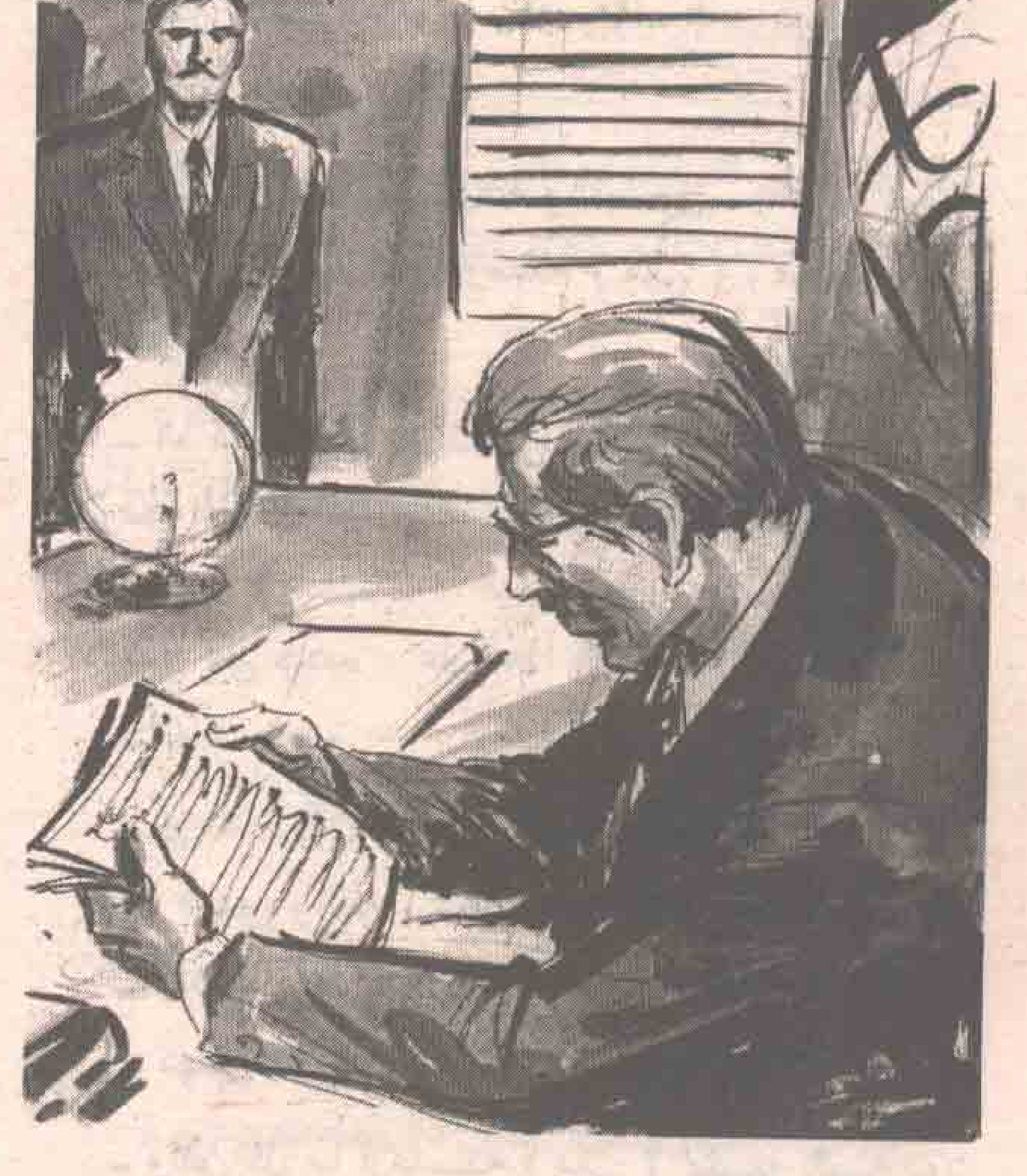
- أين كان إذن ، طوال الأسبوع السابق ؟!

هزَّ المدير رأسه ، مجيبًا :

- هذا لغز آخر .

ثم نهض من خلف مكتبه ، متابعًا :

- ولكن كل ما أرسـلته (منى) يشـير إليـه دون سواه .. تلك الحرب فى الأدغال ، وآثار القتال العنيف ،



وبسرعة دافعها اللهفة والفضول ، راحت عيناه تلتهمان التقرير ، الذى أرسلته (منى) . .

وطائرة (سونيا جراهام) الطبية .. بل ووجودها نفسه فى (كوماتا) .. ثم رحيل الطائرة على هذا النحو .

سأله مساعده :

ـ هل تعتقد أن تلك الطائرة كانت تحمل العميد (أدهم) يا سيِّدى ؟!

صمت المدير بضع لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ لا يوجد دليل واحد على هذا .

ثم التفت إلى مساعده ، مستطردًا فى حزم :

ـ ولكن الجواب هو نعم .

وبدا عليه حزم الدنيا كله ، وهو يضيف :

ـ لست أحتاج إلى دليل ، لاستنتاج ما حدث فى (كوماتا) .. ذلك الوكر الخفى ، الذى عثروا عليه ، بعد أن تم نسفه بكل من فيه ، كان يخفى رجلنا حتمًا ، طوال الفترة السابقة ، التى كان خلالها مصابًا ، أو فاقد الوعى ، أو ما شابه .. ثم استعاد وعيه ، وقدراته .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول :

ـ وتحرَّك .

وافقه مساعده بإيماءة من رأسه ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فتابع فى حسم :

ـ وعندما فعل ، كان عليهم أن يدفعوا الثمن غاليًا ؛ فهو سيقاتل كعادته ، كألف ألف رجل ، وسيواجه جيشًا من الجنود ، لو اقتضى الأمر ..

غمغم المساعد :

ـ ولكنهم انتصروا فى النهاية ..

عقد المدير حاجبيه فى صمت بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ هذا لا يتفق مع الأحداث .

وعاد إلى صمته بضع لحظات أخرى ، ثم تابع :

ـ لقد اقتحم آخرون المعركة .. ربما (سونيا جراهام) ، أو أحد أتباعها .. المهم أنهم ليسوا ذلك الجيش ، الذى واجهته (منى) والراحل (إبراهيم) ، فى قلب الأدغال .. إنهم فريق آخر ، سحق الفريق الأوَّل ، وقطف ثمرة الصراع ، عندما فقد (أدهم) قوته ، وصار صيدًا سهلاً ، بعد ليلة كاملة من القتال .

وانعقد حاجباه ، وهو يستطرد ، وكأنه يتابع المشهد بعين الخيال :

ـ وبينما أسرع فريق البحث إلى الأدغال ، كان الآخرون يفرُّون منها ، حاملين غنيمتهم الثمينة إلى (سونيا جراهام) ، التى أسرعت تغادر بها (فنزويلا) كلها ، قبل أن يستعيدها منها أحدهم .

سأله مساعده بأنفاس مبهورة :

ـ أتعتقد أن هذا ما حدث فعلاً يا سيِّدى ؟!

أجابه المدير بلهجة حازمة :

ـ بعد أن تقضى ربع قرن فى هذه المهنة مثلى ، لن تحتاج إلى بذل الكثير من الجهد ، لاستنتاج أحداث كهذه .

وازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يضيف فى صرامة :

ـ أو تقييمها .

ثم عاد إلى مكتبه بخطوات واسعة ، وهو يقول :

ـ الشىء الآخر المؤكَّد ، هو أنه هناك صلة وثيقة ، بين ما حدث خلال الساعات السابقة ، وظهور تلك

المنظمة الإجرامية الخطيرة ، وهناك صلة أخرى حتمًا ، بين كل هذا ، وإصرار (سونيا جراهام) على الظفر برجلنا .

ودقَّ سطح مكتبه بقبضته ، مكملاً :

ـ وهذا يعنى أن هدفنا الرئيسى هو (سونيا) ..

واعتدل على مقعده ، قائلاً بلهجة صارمة ، حازمة ، آمرة :

ـ اتصل برجالنا ، فى كل مكان فى العالم ، واطلب منهم أن يجمعوا كل المعلومات الممكنة عن (سونيا جراهام) ، أو أية سيِّدة أعمال أخرى ، توصف بالثراء والقوة والسطوة ، أو تمتلك نفوذًا أكبر من المعتاد .. ابحثوا عن الاسم الذى انتحلته ، فى أثناء وجودها فى (كوماتا) ، وفى أثناء وصولها إلى (فنزويلا) .. افحصوا كل قوائم الوصول ، منذ شهر مضى .. المهم أن تعثروا على طرف خيط ، يمكن أن يقودنا إليها .

وبدا شديد الحزم والانفعال ، وهو يتابع :

ـ وبأسرع وسيلة ممكنة ؛ فلو أن (ن ـ ١) قد ظلَّ حيًّا ، حتى هذه اللحظة ، فلا شىء يضمن أن يبقى كذلك ، لساعة واحدة قادمة ، فى ظلِّ هذه الظروف ، التى نواجهها جميعًا ..

وكان على حق تمامًا فى قوله هذا ..

لا شىء يمكن أن يضمن بقاء (أدهم) على قيد الحياة ، لساعة واحدة قادمة ..

لا شىء على الإطلاق ..

★ ★ ★

هبَّ قائد الهليوكوبتر التابعة لمنظمة (إكس) من فراشه فى حركة حادة عنيفة ، مع رنين باب منزله ، فى ضواحى (كراكاس) وقفز يلتقط مسدسه ، وهو يهتف :

ـ من الطارق ؟!

أتاه صوت هادئ واثق ، يجيب :

ـ إننى أبحث عن (ماريو برازيل) ..

هتف الرجل ، وهو يقترب من البـاب فـى حـذر عصبى :

ـ أنا (ماريو) .. ماذا تريد منى بالضبط ؟!

أجاب صاحب الصوت فى هدوء :

ـ عمل .

سأله (ماريو) فى عصبية :

ـ أى عمل ؟!

أجابه الرجل ، من خلف الباب :

ـ أحدهم أوصانى بك ، وقال : إنك الشخص المناسـب تمامًا للعمل الذى أحمله لك .

قال (ماريو) فى حدة :

ـ لست أعمل لحساب أحد .

ثم لوَّح بمسدسه ، هاتفًا فى حدة :

ـ هيا .. انصرف قبل أن ...

لم تكن عبارته قد اكتملت بعد ، عندما تحطَّم زجـاج الشرفة فى عنف ، ووثب عبره رجـلان إلـى المكـان ، فاستدار إليهما ، صارخًا :

ـ ما هذا ؟!

مع الحروف الأولى لصرخته ، انطلقت من مسـدس أحـد الرجلين رصاصـة ، أطـاحت بسـلاحه ، قبـل أن ينقضَ عليـه الآخـر ، بزيه البـالغ الأنـاقة ، ثم يلكمـه لكمةً كالقنبلة ، أطاحت به فى عنف ، ليرتطم بالباب ، ثم يسقط على وجهه أرضًا ..

وفى هدوء ، فتح أحد الرجلين الباب ، فانزاح الواقـف خلفه فى احترام ، مفسحًا الطريق لدونا (كارولينا) ، التى دلفت إلى المكان فى أناقة ، وهى تسأل رجلها :

ـ هل تكلَّم ؟!

أجابها الرجل فى هدوء وثقة :

ـ سيفعل .

تبـادلا عبارتيهما بالإسبانية عمـدًا ، حتى يفهمهمـا الرجل ، الذى هتف بكل رعب الدنيا :

ـ ربَّاه ! دونا (كارولينا) ؟!

جلست على أقرب مقعد إليها ، ووضعت إحدى ساقيها فوق الأخرى ، وأشعلت سيجارتها فى بطء ، وهى تقول :

- من الواضح أنك تعرفنى جيدًا .

هتف مذعورًا :

- أنا إيطالى يا (دونا) .

رفعت حاجبيها بدهشة مصطنعة ، وهى تقول :

- حقًا ؟!

ثم نفثت دخان سيجارتها فى وجهه ، مستطردة :

- هذا سيجعل الأمور أكثر سهولة .

ومالت نحوه ، مضيفة :

- أين السنيور (أدهم) ؟!

هتف بدهشة حقيقية :

- من ؟!

أشارت بيدها ، قائلة :

- ذلك المقاتل ، الذى حملته من أدغال (كومانا) ، إلى ذلك المطار الخاص فى (كراكاس) ، حيث كانت تنتظره تلك الطائرة الطبية المجهَّزة .

ارتجفت شفتاه ، وهو ينقل بصره بينها وبين رجالها ، مغمغمًا :

- لقد .. لقد رحلت به الطائرة .

سألته بابتسامة هادئة :

- إلى أين ؟!

هزَّ رأسه نفيًا ، وهو يقول :

- لست أدرى .

لم تكد كلماته تنتهى ، حتى هوت لكمة قوية على فكه ، أعقبتها ركلة فى معدته ، وأخرى فى أنفه ، الذى تفجَّرت منه الدماء ، على نحو جعله يصرخ :

- أقسم إننى لست أدرى .

هزَّت كتفيها ، ونفثت دخان سيجارتها بلا مبالاة ، وهى تقول :

- ولكن لديك حتمًا فكرة ما .. معلومة بسيطة ، أو حتى ملاحظة بدت غير مهمة .. أى شىء يمكن أن تمنحنا إياه .

هزَّ رأسه ، قائلاً بصوت أقرب إلى البكاء :

- أقسم لك ...

قاطعته فى هدوء :

- شىء يمكن أن تشترى به حياتك على الأقل .

اتسعت عيناه فى رعب ، وخاصة عندما ابتسم أحد رجالها ابتسامة مخيفة ، ورفع فوهة مسدسه ، و ...

« ربما كان لدى شىء ما .. » .

صرخ (ماريو) بالعبارة فى رعب ، فهزّت (دونا) رأسها ، ونفثت دخان سيجارتها فى بطء شديد ، قبل أن تقول :

- هذا أفضل بالتأكيد ، فلدى صديقة تنتظرنى بالخارج ، ولقد وعدتها بأن أعود إليها بأية معلومات ، وأنا أكره أن أضطر للحنث بوعودى .

ازدرد لعابه فى صعوبة ، وقال :

- السيّدة حملت معها ثلاثة معاطف من الفراء .

انعقد حاجبا (دونا) ، وهى تردّد :

- من الفراء ؟!

أجاب فى سرعة :

- نعم يا (دونا) .. ثلاثة معاطف ثمينة للغاية .. لست أدرى حتى لماذا أحضرتها إلى هنا ، ولكنها كانت تنقلها إلى الطائرة فى سرية بالغة .

سألته :

- كيف علمت بأمرها إذن ؟!

ازدرد لعابه ، قبل أن يجيب :

- من رائحتها .

بدا عليها الغضب ، فأكمل هاتفًا :

- لقد عملت لأعوام فى واحدة من ثلاجات حفظ الفراء .

رمقته بنظرة صارمة ، قبل أن تتراجع فى مقعدها ، وتنفث دخان سيجارتها ، مغمغمة :

- معاطف من الفراء ، فى منطقة كهذه ؟!

هزّ الرجل رأسه ، قائلاً :

- هذا كل ما لدى يا (دونا) .. أقسم لك .. أقسم لك .

سألته فى هدوء :

- أأنت واثق ؟!

هتف بصوت كالبكاء :

- أقسم لك يا (دونا) .

أومأت برأسها متفهِّمة ، ثم نهضت من مقعدها ، واتجهت نحو الباب ، وهى تقول :

ـ فليكن .. أنا أصدِّقك .

ورمقت أحد رجالها بنظرة خاصة ، مضيفة :

ـ لم يعد لديك ما يمكن أن تمنحنى إياه .

اتسعت عينا (ماريو) ، وقد أدرك ما يعنيه هذا ، وصرخ :

ـ لا يا (دونا) .. لا ..

ولكنها لم تلتفت خلفها لحظة واحدة ..

حتى مع دوى الرصاصة المكتوم ، الذى بلغ مسامعها ، وهى تتجه إلى سيارتها ، التى جلست داخلها (منى) ، والتى لم تكد تراها ، حتى قالت فى عصبية :

ـ لماذا رفضت صعودى إليه ؟!

أجابتها (كارولينا) فى هدوء ، وهى تدخل إلى السيارة :

ـ أسلوبنا لن يروق لك حتمًا .

مطَّت (منى) شفتيها ، وقد فهمت ما يعنيه هذا ، وسألتها :

ـ هل حصلت على شىء ؟!

صمتت (كارولينا) لحظة ، ثم أجابت فى حزم :

ـ لقد حملوا (أدهم) إلى منطقة باردة .. باردة للغاية .

وكان هذا الجواب مفاجأة لـ (منى) ..

لكنه لم يحمل أية معلومات شافية ..

بل على العكس .. لقد ضاعف من حيرة وغموض الموقف كله ..

ألف مرة ..

* * *

ارتسمت ابتسامة كبيرة صفراء على شفتى الجنرال (شامبليون) ، داخل المقر رقم واحد لمنظمة (إكس) ، فى أعماق ثلوج (ألاسكا) ، وهو يستقبل (بريماكوف) ، الذى بدا ظافرًا منتشيًا ، مزهوًّا كالطاوس ، وقال بلهجة ، حملت كل خبثه ودهائه :

ـ رائع يا عزيزى (بريماكوف) .. لقد أضفت انتصارًا جديدًا لسجلك الحافل .

أجابه (بريماكوف) بابتسامة لا تقل خبثًا :

ـ هذا أمر طبيعى يا عزيزى (شامبليون) .

ثم تجاوزه بلا مبالاة ، متابعًا :

ـ (بريماكوف) ينتصر دائمًا .

تابعه (شامبليون) بنظرة ساخرة ، ثم قال :

ـ بالطبع يا عزيزى (بريماكوف) .. بالطبع .

واصل (بريماكوف) طريقه ، بنفس الزهو والخيلاء ، فتابع (شامبليون) :

ـ الزم حجرتك ، ولا تغادرها فى الوقت الحالى .

توقَّف (بريماكوف) بحركة مباغتة ، واستدار إليه فى حدة ، والتقى حاجباه فى شدّة ، وهو يقول :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

أجابه (شامبليون) بسؤال ساخر :

ـ كيف يبدو لك ؟!

تحرَّكت يد (بريماكوف) نحو مسدسه ، وهو يقول فى غضب :

ـ أشبه بأمر اعتقال .

ارتفع حاجبا (شامبليون) بدهشة مصطنعة ، وهو يكرِّر :

ـ اعتقال ؟!

ثم قهقه ضاحكًا فى سخرية ، جعلت (بريماكوف) يستلّ مسدسه ، هاتفًا فى حدة :

ـ هل يبدو لك الأمر سخيفًا ، إلى هذا الحد ؟!

أجابه (شامبليون) فى خبث :

ـ بل يبدو لى طريفًا للغاية ، أن أنجح فى إثارة غضبك بهذه السهولة .

انعقد حاجبا (بريماكوف) أكثر ، وهو يقول :

ـ أى عبث صبيانى هذا ؟! لماذا قلت ما قلته إذن ؟!

ربَّت (شامبليون) على كتفه ، قائلاً :

ـ وماذا قلت يا عزيزى ؟! لقد طلبت منك أن تلزم حجرتك وألا تغادرها .. وهذا ما سنفعله جميعًا .. أنت ، وأنا ، و (مادلين) وذلك الإسرائيلى .

سأله (بريماكوف) فى حذر :



تحرّكت يد (بريماكوف) نحو مسدسه ، وهو يقول فى غضب :
- أشبه بأمر اعتقال !

- ولمـاذا ؟!

أشار بيده ، مجيبًا :

- لأن مستر (X) سيعقد اجتماعًا للجميع .

سأله فى دهشة :

- ولماذا نلزم حجراتنا ؟!

أجابه ، وهو يسير إلى جواره :

- إنه اجتماع عبر الفيديو ..

عاد حاجبا (بريماكوف) ينعقدان ، وهو يقول فى عصبية :

- عجيب هو السيد (X) هـذا .. كيف يدير منظمة قوية كهذه ، دون أن نراه ولو مرة واحدة ؟!

هزَّ (شامبليون) كتفيه بلا مبالاة ، قائلاً :

- وماذا فى هذا .. من الواضح أنـه يرغب فـى أن يظلّ أمره سرًّا .

قال (بريماكوف) فى حدة :

- ليس بالنسبة لنا .. المفترض أننا رجاله ، وقـادة جيشـه المنتظر .. كيف نتبـع شـخصًا مجهـولاً ، إلـى ما قد يصبح نهايتنا ؟!

ابتسم (شامبليون) ، قائلاً :

ـ هيئته فقط مجهولة ، أما أهدافه ووسائله ، وذكاؤه المفرط ، وعبقريته فى التخطيط ، وشبكة معلوماته واتصالاته الواسعة ، فكلها أمور واضحة معروفة .. لا تنس أن كل ضرباتنا كانت ناجحة للغاية .

غمغم (بريماكوف) :

ـ هذا صحيح ، ولكننا مازلنا نواجه الخطر بصدورنا ، فى حين يبقى هو فى مأمن تام ..

ثم استطرد ، مستعيدًا عصبيته :

ـ هل تعلم ماذا سيحدث ، لو انقلبت الأمور ، وبدأت مرحلة الهزائم ؟! سنواجه العواقب كلها وحدنا .. هو وحده سينجو دون أن تمسّ شعرة واحدة منه .

ابتسم (شامبليون) فى خبث ، وقال :

ـ من المؤكَّد أن هذا ما يسعى إليه ، بإحاطة نفسه بكل هذا الغموض .

تطلّع إليه (بريماكوف) بضع لحظات فى صرامة ، قبل أن يلوّح بسبّابته فى وجهه ، وهو يقول فى حدة :

ـ قل لى يا رجل .. لماذا يبدو لى أنك تخفى شيئًا ما ؟!

هزّ (شامبليون) كتفيه فى لا مبالاة ، قائلاً :

ـ وما الذى يمكن أن أخفيه ؟!

تطلّع (بريماكوف) إلى عينيه الخبيثتين أكثر ، وهو يقول :

ـ دعنا نعدّل السؤال إذن .. لماذا يبدو لى أنك تعلم أكثر مما تُبدى ؟!

اتسعت ابتسامة (شامبليون) الخبيثة ، وهو يقول :

ـ وما الذى يمكن أن أعلمه ؟!

أجابه (بريماكوف) فى حدة :

ـ شخصية السيد (X) مثلاً .

بدا له للحظات ، وكأن (شامبليون) قد تجمّد ، بكل ملامحه ومشاعره ..

وحتى ابتسامته الخبيثة السخيفة ..

ثم زال كل هذا الجمود فى ثانية واحدة ، ومال (شامبليون) نحوه ، قائلاً :

- ولمـاذا يمكن أن يخصنى السيد (X) بسر خطير كهذا ، يبذل جهدًا مضنيًا طوال الوقت للحفاظ عليه ؟!

شعر (بريماكوف) بالتوتر ، وهو يجيب :

- ومن أدرانى ؟!

مرة أخرى ، جمد (شامبليون) للحظة أو لحظتين ، قبل أن تتألق عيناه ببريق ساخر مستفز ، وهو يتراجع ، قائلاً :

- انتظر حتى تدرى إذن .

قالها ، ثم تفجرت من بين شفتيه ضحكة عالية ، وهو يبتعد ، تاركًا الروسى خلفه محتقن الوجه ، يلقى على نفسه ألف سؤال .

ترى هل يعلم (شامبليون) بالفعل أكثر مما يخفى ؟!

هل ؟!

★ ★ ★

« إنها المرة الأولى ، التى أجتمع فيها بكم جميعًا .. »

تردد الصوت الآلى ، المتغير النبرات إليكترونيًا ، داخل حجرة (يارون دزرائيلى) ، الذى عقد حاجبيه فى ضيق ، وهو يغمغم :

- وهل تطلق على هذا اسم اجتماع ؟!

كان يتصور أن صوته بالغ الخفوت ، ولكن تلك الصورة المظلمة على الشاشة قالت فى صرامة :

- نعم .. إنه اجتماع ، بكل ما تحمله الكلمة من معان يا أدون (يارون) .. كلكم تستطيعون رؤيتى ، على الشاشات المعلقة على جدران حجراتكم ، وأمامى أنا عدة شاشات ، يمكننى رؤيتكم جميعًا عليها ، فى آن واحد.. وهذا ما يطلق عليه اسم مؤتمرات الفيديو(*)..

قال (يارون) فى سخرية :

- هل تمزح يا رجل ، أم أنك تسمى ما يحدث بأسماء تخالف حقيقتها ؟! ربما كنت ترانا جميعًا فى آن واحد ، ولكننا لا نرى سوى ظل غير مميز الملامح .

أتاه صوت آلى صارم ، يقول :

(★) مؤتمرات الفيديو : مصطلح حديث ، يطلق على كل أنواع الحوار ، الذى يدور بين أطراف بعيد بعضها عن البعض ، عبر هواتف مرئية خاصة ، ومن خلال شبكة الإنترنت .

ـ هذا يكفيك .

ثم أضاف فى حزم :

ـ وأعتقد أنك تتقاضى ما يكفى ، لتجاهل هذه النقطة الفرعية تمامًا .

مطَّ (يارون) شفتيه محنقًا ، ولكنه غمغم :

ـ بالتأكيد .

قال الصوت المعدَّل :

ـ عظيم .. ألدى أحدكم أى تعليق آخر ؟!

مضت لحظة من الصمت ، ثم نقلت أجهزة البث صوت (سونيا) ، وهى تسأل :

ـ لماذا نبقى على حياة (أدهم صبرى) ؟!

مرَّت لحظة أخرى صامتة ، ثم أتاها الجواب بنفس الصوت الصارم المتغيِّر :

ـ لدى أسبابى .

اندفع (بريماكوف) يسأل فى عصبية :

ـ ولماذا نحتفظ بطاقم ناقلة البترول المصرية ؟! لماذا لم نتخلَّص منهم ، أو نأمرهم بمغادرتها ، قبل الاستيلاء عليها ؟!

أجابه الصوت الآلى فى خشونة :

ـ قلت من قبل : إن لدى أسبابى .. وعندما تحين اللحظة المناسبة ، ستدركون أن هذا إجراء حكيم للغاية .

ران صمت تام ، إثر العبارة الأخيرة ، على كل المستويات ، قبل أن يقطعه (يارون) ، متسائلاً فى ضجر :

ـ حسن يا سيِّد (X) .. ما الذى تريده منا بالضبط ؟!

أجابه صاحب الصوت الآلى :

ـ كلكم تعلمون أن منظمتنا قد تطوَّرت بسرعة مدهشة، خلال الساعات القليلة الماضية ، وأننا نجحنا فى فرض وجودنا وسطوتنا ، على المجتمع الدولى كله ، بعدة ضربات خاطفة ، قوية ناجحة .. ومن الطبيعى أن يستفز هذا الجميع ، ويدفعهم إلى التعاون والتآزر ، فى سبيل السعى خلفنا ، وكشف غموضنا وأسرارنا ، والقضاء على كل ما امتلكناه من قوة ، قبل أن يستفحل أمرنا ، ونتحوَّل إلى قوة عظمى ، لا سبيل إلى إقصائها عن الساحة أبدًا ، دون خسائر فادحة .

انبعث صوت (بريماكوف) ، يقول :

ـ دعنا إذن نوجه إليهم ضربة جديدة .

هتف (شامبليون) :

ـ بل على العكس .. أقترح أن نهدأ ونستكين ، حتى نصنع جيشنا ، وندرِّبه على القتال ، ثم نعود إلى الظهور ثانية .

أجابه الصوت فى صرامة :

ـ خطأ أيها الفرنسى .. خطأ .. الهدوء والسكون قد يبدو خطوة حكيمة ، فى ظل هذه الظروف ، ولكن الحكمة لا تصلح لبناء إمبراطورية كالتى ننشدها .. ولو أننا اتبعنا أساليب الحكمة والحيطة والحذر ، لما بلغنا ما بلغناه .. هذا الصرح ، الذى تقيمون فيه الآن ، والذى تم بناؤه فى ثلاث سنوات كاملة ، وتكلف ما يزيد على المليار دولار ، لم يأت بالحذر والحكمة .. بل جاء بالكفاح ، والصراع ، والقتال ، وجمع كل الموارد ، بكل السبل الممكنة ، وغير الممكنة .

اعتدل (يارون) ، وهو يسأل فى اهتمام :

ـ قل لى يا سيِّد (X) : ألديك خطة بعينها ، للمرحلة القادمة ؟!

أجابه الصوت فى حزم :

ـ بالتأكيد .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ الواقع أنها ليست خطة جديدة ، وإنما هى مرحلة من مراحل خطة ، تم وضعها منذ زمن طويل ، وأشرف على دراستها ومراجعتها فريق من أقوى وأفضل وأبرع الخبراء العسكريين ، فى العالم أجمع ، قبل أن يتم حتى الاتصال بكم .

سأل (بريماكوف) مبهورًا :

ـ أتعنى أن الاتصال بنا كان جزءًا من هذه الخطة ؟!

أجابه صوت السيد (X) :

ـ بالطبع يا جنرال .. لقد روجعت ملفاتكم ، مع مئات الملفات الأخرى ، بمنتهى الدقة .. كل لمحة عنكم تمت معرفتها ، ودراستها ، من قبل خبراء علميين ونفسانيين ، لتحديد قدراتكم وردود أفعالكم ، عندما تتم مصارحتكم بالأمر .

واكتسب الصوت الآلى رنة زهو ، وهو يردف :

ـ لم يكن من الممكن قط أن نجازف بمحاولة التعاقد مع الشخص الخطأ ..

كان ذلك كفيلاً بتحطيم الكيان كله قبل وجوده .

هتف (يارون) ، وقد شمله الحماس والانبهار ، إلى الحد الذى أفقده بروده الشهير ، وصرامته المستفزة :

ـ وما المرحلة التالية ؟!

صمت السيد (X) طويلاً هذه المرة ، قبل أن يجيب :

ـ أن نضاعف قوتنا وسيطرتنا .

وعندما بدأ فى تحليل عبارته ، وشرح تفاصيل فكرته ، قفز بهم الذهول إلى ذروته ، وأدركوا أنهم ليسوا أمام زعيم عادى ..

بل أمام عبقرية نادرة ..

على أى مقياس .

* * *

٨ ـ المقاتل ..

« المعلومة التى وصلتنا ليست بالبسيطة أيها السادة .. »

نطق مدير المخابرات العبارة فى حزم ، وهو يجلس على رأس مائدة الاجتماعات ، فى مبنى الأمن القومى ، بالمخابرات العامة المصرية ، ثم أدار عينيه فى وجوه الرجال ، متابعًا :

ـ إنها تعنى أن (سونيا جراهام) ، ومنظمة (إكس) بالتالى ، تختفى فى واحدة من المناطق القطبية فى العالم ، لأن المرء لا يحتاج إلى معطف من الفراء ، فى فصل الربيع ، إلا فى تلك المناطق .

ثم نهض من مقعده ، وأشار إلى خريطة كبيرة للعالم ، تحتل نصف حائط كامل ، وهو يقول :

ـ والمناطق القطبية فى العالم محدودة ، على الرغم من اتساع رقعتها ومساحتها ، وخاصة تلك التى يمكن أن تتخذها المنظمة وكرًا ، يختفى فيه رجالها ، وتتحرك

منه غواصتها ومقاتلتها ، بحيث يمكنها السيطرة على المحيطين ، الأطلنطى والهادى ، والعودة إلى قواعدها ، لتختفى بالسرعة المناسبة وعبر طرق آمنة تمامًا .

وتحرّكت يده على الخريطة ، وهو يتابع :

ـ لذا يمكننا استبعاد القارة القطبية الجنوبية بأكملها .. أى أكثر من نصف المناطق القطبية فى العالم ، فلا يتبقى لنا عندئذ سوى أقصى شمال (روسيا) .. وبالتحديد منطقة (سيبيريا) ، و(جرينلند) ، والمناطق الشمالية الجنوبية ، فى (كندا) و(ألاسكا) ..

قال أحد الرجال :

ـ فحص هذه الأماكن قد يستغرق عامًا كاملاً يا سيِّدى .

أجابه المدير :

ـ ليس بالضرورة .. الخبراء يدرسون الآن كل المواقع ، التى وجَّه فيها القراصنة ضرباتهم ، والمسارات المحتملة لغوّاصتهم النووية ، لبلوغ تلك المواقع ، مع تفادى مسارات الأقمار الصناعية ، وهذا

سيختصر دائرة البحث إلى حد كبير جدًّا ، بحيث يمكننا التركيز على موقعين أو ثلاثة :

واكتسب صوته صرامة واضحة ، وهو يقول :

ـ ولكننا لن ننتظر حتى قرار الخبراء .. سنرسل رجالنا على الفور إلى كل البقاع المحتملة .. (سيبيريا) ، و (ألاسكا) ، و(كندا) ، والأمريكيون يصرّون على أن يقتصر البحث فى (جرينلند) على رجالهم وحدهم ، إلا أننا سنتجاهل هذا ، وسنرسل بعض المتطوعين ، لبحث الموقف هناك .

قال أحد الرجال فى حزم :

ـ كلنا مستعدون للتطوّع فورًا يا سيِّدى .

أشار المدير بيده ، قائلاً :

ـ فيما بعد .. سنناقش هذا فيما بعد .. أما الآن فسنراجع معًا بعض النقاط الرئيسية ..

وعاد يجلس على مقعده ، متابعًا :

ـ تلك المنظمة برزت فجأة إلى الوجود ، منذ بضع ساعات ، بضربة مدهشة ، عندما استولت على

غواصة نووية روسية ، بمساعدة رئيس أركان القوات البحرية السابق ، والجنرال (يورى بريماكوف) ، ثم أعقبتها بسرقة أحدث مقاتلة أمريكية ، بمعاونة قائد القوات الجوية هناك بنفسه ، وهناك مؤشرات تشير إلى أن ذلك التنظيم يضمّ الجنرال الفرنسى الهارب (موريش شامبليون) ، والإسرائيلية (سونيا جراهام) ، وهذا يعنى أنه ليس بالتنظيم الحديث ، وإنما هو كيان قائم منذ بعض الوقت ، ظلّ يبنى نفسه فى صمت وسرية ، حتى بلغ نقطة انطلاق قوية ، فأعلن عن وجوده بهذه الجرأة .

غمغم رجل مخابرات :

ـ أو بهذه الصفاقة .

أجابه المدير :

ـ بالاثنين معًا .. المهم أن بدايته جاءت أعنف مما يمكن تصوّره ، وبتلاحق مدهش ، يوحى بأن كل ضرباته تم الإعداد لها مسبقًا ، وربما قبل حتى أن يتمّ الاستيلاء على الغوّاصة الروسية .

قال رجل آخر :

ـ فيما عدا إغراق سفينة الأسطول الروسية بالطبع .

أجابه المدير فى حزم :

ـ بل ربما كان هذا ضمن الخطة أيضًا .. لست أقصد إغراق تلك السفينة بالتحديد ، ولكن عملية ضرب أية محاولة لكشف أمرهم ، بمنتهى العنف والقسوة ، حتى تصبح عبرة للآخرين ، على نحو يُضعف احتمالات المقاومة .

والتقط نفسًا عميقًا ، وهو يدير عينيه فى الوجوه المحيطة به ، قبل أن يتابع ، فى حزم أكبر :

ـ والضربات تتمّ كلها فى سرعة وعنف ، بحيث لا يمنحون العالم فرصة التقاط أنفاسه ، وهذا أيضًا يؤيِّد فكرة الخطة المعدَّة مسبقًا ، والتى تسير خطواتها وفقًا لجدول محدود .. ويعنى فى الوقت ذاته أن علينا أن نتوقَّع ضربة قوية قادمة ..

هتف أحدهم :

ـ أقوى مما حدث بالفعل .

انبرى آخر يجيب :

ـ بالتأكيد ، ففى كل مرة تكتسب المنظمة بانتصارها قوة جديدة ، مما يمنحها فرصة توجيه ضربة أكثر تأثيرًا .

قال المدير :

ـ بالضبط .

سأله ثالث :

ـ ما الذى يمكن أن نتوقَّعه إذن ؟!

أشار إليهم المدير بيده ، مجيبًا :

ـ هذا ما ينبغى أن نتشاور بشأنه .

راح كل منهم يطرح احتمالاته ، مهما بدت عجيبة ..

أحدهم تصورَّ أن الضربة القادمة ستكون الاستيلاء على حاملة طائرات أمريكية ..

وقال ثانٍ : إنها السيطرة على قاعدة عسكرية كاملة ..

وأشار الثالث إلى احتمال نسف مكوك الفضاء القادم ..

واستمع المدير إليهم فى اهتمام ، ثم هزَّ رأسه ، قائلاً :

ـ كل هذه الاحتمالات واردة ، ولكننى أعتقد أن الضربة القادمة لمنظمة (إكس) ، ستفوق كل توقعاتنا .

سأله بعضهم فى قلق :

ـ كيف ؟!

صمت طويلاً هذه المرة ، قبل أن يجيب فى حزم صارم :

ـ لست أدرى ، ولكن علينا ألا نتوقَّع مجرَّد ضربة عادية ، مهما بلغت قوتها .

سأل أحدهم فى حذر :

ـ ما الذى ينبغى أن نتوقَّعه إذن ؟!

أدار المدير عينيه إليه ، مجيبًا :

ـ كارثة .

نطقها ، وهو يعنى كل حرف منها ..

كل حرف ..

★ ★ ★

لا توجد بالفعل كاميرات مراقبة فى الحجرة ..

هذا ما تأكَّد منه (أدهم) ، خلال الساعات السابقة ..

صحيح أن آلات المراقبة قد بلغت حدًّا مدهشًا ، فى السنوات الخمس الأخيرة حتى صار بالإمكان صنعها بأحجام صغيرة دقيقة ، وإخفاؤها فى أماكن غير ملحوظة أو مكشوفة ..

ولكن هذا لا يمكن أن يخدع رجلاً مثل (أدهم صبرى) ..

رجل يحيا منذ نعومة أظفاره ، فى عالم الغموض والأسرار ..

عالم المخابرات(*) ..

لقد استرخى على فراشه ، وترك جسده وعقله يهدآن ، ويستعيدان نشاطهما وصفاءهما ، وهو يراقب كل ما حوله بعينى صقر ..

كان بإمكانه أن يكشف آلات المراقبة ، أيًّا كان موضعها ..

(★) راجع قصة (ملائكة الجحيم) .. المغامرة رقم ٦١

أو ساترها ..

وكان يتوقَّع وجود جهاز واحد على الأقل ..

ولكن هذا لم يحدث ..

وكم أدهشه الأمر !!

إنه يعنى أن (سونيا) ومن خلفها يثقون ثقة عمياء بذلك الطوق الإليكترونى ، الذى أحاطوا به عنقه ..

من المؤكَّد أنه غير قابل للنزع ..

أو الخداع ..

ولقد اختبروا هذا حتمًا ..

اختبروه حتى لم تعد لديهم ذرة شك واحدة بشأنه ..

وربما كانوا يختبرونه معه أيضًا ..

يختبرونه مع شخص ، يثقون بقدرته على إيجاد مخرج من كل مأزق ..

مهما بلغت صعوبته ..

ودقته ..

وتعقيداته ..

إنهم حتى لم يحاولوا إغلاق الباب ..

لقد تركوه مفتوحًا ، كنوع من التحدّى ..

أو الاختبار ..

وفى نشاط ، قفز من فراشه ، واتجه إلى الباب المفتوح ، وراح يفحص إطاره فى اهتمام ..

هناك حتمًا وحدة إليكترونية ، تصنع حاجزًا ، لا يمكنه اختراقه ..

أو تجاوزه ..

وحدة ترتبط بهذا الطوق مباشرة ..

وترسل إليه إشارة خاصة ..

وتلك الوحدة داخل إطار الباب ..

وعندما يعبره ، تلتقط ذبذبة محدودة من الطوق ..

وتطلق إشارة الخطر ..

ويبدأ العذاب ..

ولكن مهلاً ..

تلك الوحدة ليست وحدة رئيسية ..

لقد تجاوزها مرتين ..

مرة وهو يغادر الحجرة ..

ومرة عندما اندفع عائدًا إليها ..

وبمجرَّد عودته ، بدأ الطوق مرحلة الاسترخاء ، وكأنما تلقَى إشارة عكسية ..

انعقد حاجباه فى شدّة ، وهو يدرس الأمر فى ذهنه ، ويداه تواصلان فحص إطار الباب ، بأصابع ماهرة خبيرة .

ثم توقَّفت سبَّابته عند نقطة ما ..

تجويف رفيع دقيق ، لا تتجاوز أبعاده المليمترين طولاً وعرضًا ، ولا يزيد عمقه على مليمتر واحد ..

ولكن أصابعه كشفت وجوده ..

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ، وهو يتمتم :

ـ آه .. يبدو أن قواعد التكنولوجيا لا تختلف كثيرًا ، من مكان إلى آخر .

أدار عينيه إلى الجانب المقابل من الإطار، وفحصه ببصره فى دقة ، قبل أن يتجه نحوه ، ويتحسَّس موضع تجويف مماثل ، يواجه الأوّل تمامًا ..



وفحصه ببصره فى دقة ، قبل أن يتجه نحوه ، ويتحسَّس موضع تجويف مماثل ، يواجه الأوَّل تمامًا ..

ولثانية أو ثانيتين ، نقل بصره بين التجويفين ، وكأنما يرسم خريطة دقيقة فى ذهنه لموضعيهما ، قبل أن يمدّ يده عبر الباب حتى عضده ، فى حذر كامل ، ثم يعود لسحبه ، قائلاً فى خفوت :

ـ لا بد من عبور الطوق .. كما توقَّعت تمامًا .

وقف هادئًا بضع لحظات ، ثم هتف فجأة :

ـ ألا يوجد أحد هنا ؟!

لم يتلقَ جوابًا لدقيقة كاملة ، فصاح بصوت أعلى :

ـ أين خدمة الغرف ؟!

نطقها بسخرية شديدة ، انعقد لها حاجبا (سونيا) ، فى حجرة المراقبة ، وهى تغمغم :

ـ (أدهم) هو (أدهم) .. لا يتغيَّر أبدًا ..

سألها (يارون) فى ضجر :

ـ لماذا لم تضعوا كاميرات مراقبة ، أو أجهزة تنصُّت فى حجرته ؟!

قالت فى هدوء :

ـ لا توجد ضرورة لهذا ، فالممر الممتدّ من حجرته ، لثلاثة أمتار فحسب ، هو من الناحية العملية والفعلية ،

امتداد لسجنه ، ففى نهايته باب إليكترونى مغلق بإحكام ، وبه آلات تصوير ومراقبة وأجهزة تنصُت دقيقة .. ولو نجح فى تجاوز حجرته ، وهذا أمر مستحيل ، طبقًا لكل الاختبارات ، التى أجريت على طوق الأمن الجديد ، فسيصبح داخل امتداد زنزانته فحسب .

ابتسم فى سخرية ، قائلاً :

ـ يبدو لى أنك تمنحينه فرصة للفرار .

قالت فى ثقة :

ـ لن يمكنه هذا أبدًا .

ثم ابتسمت فى دهاء ، مكملة :

ـ ولكنه سيستهلك كل طاقته فى البحث عن وسائل لهذا .

مطّ شفتيه ، وهزّ رأسه فى آن واحد ، وكأنما يستوعب الأمر ، ولكنه لا يروق له أبدًا ، وهذا ما بدا واضحًا فى صوته ، وهو يقول :

ـ لست أفهم لماذا تبقون على حياته ، وتبذلون فى سبيل هذا جهدًا مضنيًا ، فى مراقبته وحراسته .

صمتت بضع لحظات ، وهى تراقب الشاشة أمامها ، قبل أن تقول :

ـ من المؤكَّد أن (X) له أسبابه .

قال فى سخرية :

ـ حقًّا ؟!

ثم اعتدل ، يسألها فى اهتمام :

ـ من (X) هذا يا (سونيا) ؟!

هزَّت كتفيها ، قائلة :

ـ ومن أدرانى ؟!

ابتسم فى سخرية ، وهو يتراجع ، مغمغمًا :

ـ هل تحاولين إقناعى بهذا ؟!

أشعلت سيجارتها ، قائلة :

ـ لا بد أنك قد لاحظت أنه يهتمّ كثيرًا بالحفاظ على سرية شخصيته .

قال فى سرعة :

ـ حتى بالنسبة لك .

أجابت فى صرامة ، وهى تنفث دخان سيجارتها :

- بالنسبة للجميع .

هزَّ رأسه بعدم اقتناع ، قائلاً :

- لا يمكننى أن أتصوَّر (سونيا جراهام) ، وهى تعمل مع شخص تجهل حقيقة هويته .

انعقد حاجباها ، وهى تقول :

- قلت لك : إن البدايات لا تهم .

ثم أشارت بسبَّابتها ، مضيفة فى صرامة :

- ولكننى أربح دائمًا فى النهاية .

هزَّ رأسه مرة أخرى ، وقال :

- مستحيل ! حتى فى البدايات ، ليس من الـ ...

قاطعته فجأة ، وهى تعتدل على مقعدها فى توتر :

- انتظر .

استدار يلقى نظرة على شاشة المراقبة ، التى تنقل ما يدور فى الممر ، الذى يمتدّ أمام باب زنزانة (أدهم) المفتوحة ، وانعقد حاجباه فى توتر ، وهى تغمغم فى عصبية :

- ماذا أصابه ؟!

فبمنتهى العنف ، كان (أدهم) يلقى أثاث حجرته خارجها ، ليرتطم بالجدار المقابل للباب ، ثم يسقط محطمًا .

وفى عصبية أكثر ، غمغمت (سونيا) :

- ما الذى يفعله بالضبط ؟!

قال (بارون) فى حذر :

- ربما أصابه الجنون .

هتفت :

- (أدهم) ؟! مستحيل !

قال فى حنق :

- إنه يسعى لاستفزازنا إذن .

هزَّت رأسها فى بطء ، قائلة :

- كلاً .

وصمتت لحظة ، ثم أضافت :

- إنه يختبرنا .

ردَّد فى دهشة :

- يختبرنا ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، ونفثت دخـــان سـيجارتها الرفيعة مرة أخرى ، قائلة :

ـ نعم .. يحـاول معـرفة ردود أفعـالنــا ، إزاء أى تصرُف عنيف منه .

سألها :

ـ سؤال جيِّد .. ما رد فعلنا حقًا ؟!

هزّت رأسها مرة أخرى ، مجيبة :

ـ بل سل : ما رد فعل الطوق المحيط بعنقه .

سألها فى اهتمام :

ـ ما رد فعله إذن ؟!

صمتت بضع لحظات ، ثم أجابت فى بطء :

ـ النشاط الزائد يرسل إليه إشـارة مشـابهة لإشـارة الأمن ، و ...

وتألّقت عيناها ببريق وحشى عابث ، وهى تضيف :

ـ ويقوم بعمله .

فى نفس اللحظة ، التى نطقت فيها عبارتها ، أطلق الطوق المحيط بعنق (أدهم) ذلك الأزيز المخيف ..

ثم بدأ فجأة يؤدى عمله ..

القاتل ..

وفـى هـذه المـرة ، لـم يكـن (أدهـم) يـدرى كيـف يمكنه إيقاف عمل الطوق الرهيب ..

ولم يكن أمامه ، لينجو ، سوى أن يجد الوسـيلة المناسبة للخلاص ..

بأسرع وقت ممكن ..

وفى ظل ظروف خاصة جدًا ..

ظروف يعتصر خلالها الطوق عنقه ..

بمنتهى العنف ..

والقسوة ..

حتى الموت ..

* * *

« لا يوجد أدنى أثر .. »

نطقـت (منـى) العبـارة فـى مـرارة شـديدة ، وهـى تراجع بيانات الكمبيوتـر للمـرة الخامسـة ، ثـم التفتت إلى دونا (كارولينا) ، مستطردة :

ـ لقد أقلعت الطائرة من (كراكاس) ، إلى وجهة مجهولة تمامًا .. لا أحد كان يعلم إلى أين ستذهب .. كل ما حصلنا عليه من معلومات ، هو أنها قد تزوَّدت بالوقود لرحلة طويلة ..

انعقد حاجبا (دونا) ، وراحت تنفث دخان سيجارتها دون تعليق ، فتابعت (منى) :

ـ ونعرف أيضًا طبيعة ونوعية الأجهزة الطبية ، التى تم تجهيزها بها ، ولكن هذا لا يفيد كثيرًا ، فى ظروفنا هذه .

غمغمت (دونا) فى عصبية :

ـ كل شىء يفيد .

ثم أدارت عينيها إليها ، مستطردة :

ـ أليس هذا ما تعلمتموه يا أفراد المخابرات ؟!

أجابتها (منى) فى حزم :

ـ بلى .

ثم التقى حاجباها بدورها ، مستطردة :

ـ كل شىء يفيد .

كان عقلها يعمل فى ظل ظروف غير طبيعية ..

غير طبيعية على الإطلاق ..

فمنذ أيقنت من أن (أدهم) كان على قيد الحياة ، حتى آخر لحظة ، فى أدغال (كومانا) ، انتعشت فى قلبها كل آمال الدنيا دفعة واحدة ..

ولكنه اختفى مرة أخرى ..

اختفى فى ظروف أقل غموضًا ..

وأكثر خطورة ..

إنها تعلم الآن أنه بين يدى (سونيا) ..

(سونيا جراهام) .. عدوته اللدود ، وزوجته السابقة ، و ...

وأم ابنه الوحيد ..

اعتصر الألم قلبها ، مع تلك النقطة الأخيرة ، وشعرت بغصة مؤلمة فى حلقها ..

ولكنها ابتلعت كل هذا فى سرعة ..

لم يعد يهم من أنجب ابنه ..

المهم الآن هو أن يعود ..

حيًا ..

سليمًا ..

معافى ..

وبأى ثمن ..

فظفر (سونيا) به ، ونجاحها فى حمله إلى مكان ما ، يعنى أنه لم يكن بكامل لياقته ..

أو وعيه ..

وربما كان هذا هو الغرض من الطائرة الطبية المجهَّزة ..

الإبقاء عليه مخدَّرًا ، أو فاقد الوعى ، طوال رحلة طويلة ..

طويلة للغاية ..

رحلة إلى منطقة قطبية ..

فى مكان ما من العالم ..

وكل ما لديها بعض المعلومات القليلة ..

للغاية ..

ولكن دونا (كارولينا) على حق ..

كل معلومة ، مهما صغر شأنها ، يمكن أن تفيد ..

كل معلومة ..

وما ينبغى أن تفعله ، هو أن تعيد فرز ما لديها من معلومات ..

وتصنيفها ..

ودراستها ..

وربط بعضها ببعض ..

ثم البحث عن أفضل وسيلة لاستغلالها ..

« ما طراز طائرة (سونيا) ؟! »

ألقت سؤالها على دونا ، التى استدارت إليها فى دهشة ، قائلة :

- وبم يفيد هذا ؟!

أجابتها فى حزم :

- أنت قلتها .. كل شىء يمكن أن يفيد .. لقد أقلعت تلك الطائرة من مطار خاص ، وهذا يعنى أنها ليست ضخمة بما يكفى ، للسفر لمسافات طويلة .

اعتدلت (كارولينا) وهى تقول فى اهتمام :

- ربما تم تغييرها فى مرحلة ما .

هزّت (منى) رأسها ، قائلة :

- لست أعتقد هذا ، فلقد تم تجهيزها بمعدات وأدوات طبية ، تصل إلى مليونى دولار ، و (سونيا) لن تفعل كل هذا ، لتلقى الطائرة فى أوّل منطقة هبوط ، وتستقل غيرها .

هزّت (كارولينا) رأسها بدورها ، وهى تقول :

- فكرة معقولة .

ثم أخبرتها بطراز الطائرة ، وتساءلت :

- والآن بم يفيدك معرفة طرازها .

أجابت (منى) فى حماس :

- سنعرف مقدار ما يملأ خزاناتها بالوقود ، ومعدّل استهلاك محركها ، مع حمولتها المفترضة ، وبذا يمكننا تحديد المسافة التى يمكنها الطيران خلالها ، قبل أن تحتاج إلى التزوُّد مرة أخرى بالوقود .

هتفت (كارولينا) :

- وبرسم دائرة ، يقع مركزها فى (كومانا) ، يمكننا بمعرفة موقع التزوُّد بالوقود ، تحديد مسارها ، والمنطقة القطبية التى تتجه إليها .

أجابت (منى) :

- بالضبط .. ويمكننا تكرار العملية ، من نقطة إلى أخرى ، حتى نرسم خريطة للمسار .

ضربت (دونا) راحتها بقبضتها ، هاتفة :

- وهكذا نظفر بتلك اللعينة .

تنهّدت (منى) فى حرارة ، مغمغمة :

- ونستعيد (أدهم) .

هبّت (كارولينا) من مقعدها ، وشملها حماس عجيب ، وهى تقول :

- سأبرق إلى رجالى ، فى كل أنحاء العالم .. سأطلب منهم جمع كل معلومة ممكنة ، عن أية طائرة تزوّدت بالوقود ، فى أى مكان ..

قاطعتها (منى) :

- رويدك يا (دونا) .. إننا لم نجر حساباتنا بعد .

ثم ضغطت أحد أزرار الكمبيوتر ، مضيفة :

ـ كما أن رجالنا سيؤدّون هذا العمل بصورة أفضل حتمًا .

هزّت (دونا) كتفيها ، قائلة :

ـ هذا ما تتصوَّرينه .

راحت (منى) تعمل ، فى همة ونشاط ، لإرسال تلك الفكرة الجديدة إلى القيادة فى (القاهرة) ، عبر قناة إنترنت خاصة وسرية ، وعقلها يعيد دراسة الأمر مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

نعم .. إنها وسيلة مدهشة ، لتحديد مسار طائرة (سونيا) ..

ومعرفة الاتجاه الذى اتخذته ..

وسيقود هذا حتمًا إلى كشف وكرها ..

والتوصّل إلى (أدهم) ..

(أدهم) الذى لن تتوانى عن بذل حياتها نفسها ، فى سبيل استعادته ، لو اقتضى الأمر هذا .

وفى تلك اللحظات ، لم يعد يعنيها أنه قد تزوَّج (سونيا) ..

أو أنجب منها ..

لم يعد يهمها أن تحبه (جيهان) ..

وتهيم به (دونا) ..

وتعشقه (نادية) ..

لم يعد يهمها حتى أن يحيطها بحبه ..

كل ما يعنيها هو أن يعود ..

وينجو ..

ألا يظل طويلاً فى قبضة أفعى (الموساد) السابقة..

وكل من خلفها ..

وبكل حرارة الدنيا ، وجدت نفسها تهمهم :

ـ أعده إلىَّ يا إلهى ! أرجوك .

لم تكن قد انتهت بعد من كتابة تقريرها ، أو ضغطت زر إرساله ، عندما ظهرت علامة تعجُّب كبيرة ، فى الركن الأيمن السفلى من الشاشة ..

وكان هذا يعنى أنه هناك رسالة لها ..

من القيادة فى (القاهرة) ..
وبمنتهى اللهفة ، ضغطت زر الرسائل ..
وتعلَّقت عيناها بالشاشة ..
وخفق قلبها فى عنف ..
وبدت لها تلك الثوانى ، التى استغرقها ظهور الرسالة ، أشبه بدهر كامل ، حتى إنها غمغمت فى عصبية :
ـ هيّا .. هيّا ..
وأخيرًا ، ظهرت الرسالة على الشاشة ..
كانت مكتوبة بشفرة خاصة للغاية ..
شفرة لا يمكن أن يفهمها سوى أفراد المخابرات ..
المخابرات المصرية وحدها ..
ولأنها مدرَّبة على التعامل مع ذلك النوع من الشفرة ، التهمت (منى) الأسطر الأولى من الرسالة فى لهفة ، و ...
« يا إلهى ! »
انطلق الهتاف من حلقها ، مع شهقة قوية ، جعلت (دونا) تسألها فى هلع :

ـ ماذا هناك .
هتفت (منى) :
ـ فعلتها (سونيا) .
سألتها (دونا) ، وهى تتطلَّع إلى الكمبيوتر فى حيرة ، غير قادرة على استيعاب رموزه وكلماته :
ـ ما الذى فعلته ؟!
أجابتها فى مرارة :
ـ لقد عثروا على طائرتها الطبية خالية ، فى (بوينس أيرس) .
ارتفع حاجبا (كارولينا) ، وهى تهتف :
ـ يا للأفعى ! لقد فعلت ما كنت أخشاه .. جذبتنا جميعًا إلى هدف زائف .. ثم ...
عضت (منى) شفتيها ، بكل ألم الدنيا ، دون أن تستمع إلى باقى عبارة (كارولينا) ..
لقد فعلتها (سونيا) ..
حطَّمت آخر فرصة للعثور على (أدهم) ..
واستعادته ..

حطمت أمل (منى) وقلبها كعادتها ..

بلا رحمة ..

أو شفقة ..

أو هوادة ..

« أهذا كل ما تحويه الرسالة ؟! »

قفز سؤال دونا (كارولينا) إلى رأسها ، وانتزعها من حزنها دفعة واحدة ، فخفضت عينيها إلى الرسالة ، لتكمل كلماتها ، و ...

وانطلقت من حلقها شهقة أخرى ، وهى تهتف :

ـ ربّاه ! مستحيل !

سألتها (دونا) ، وقد هوى قلبها بين قدميها :

ـ ماذا حدث ؟!

أدارت عينيها إليها ، هاتفة :

ـ المنظمة ضربت ضربة جديدة .

هتفت (دونا) :

ـ ماذا فعلوا هذه المرة ؟!

اتسعت عينا (منى) ، وعجز لسانها عن النطق ، وهى تدير عينيها مرة أخرى إلى الرسالة على الشاشة ..

فقد كان هدف ضربة منظمة (إكس) هذه المرة مذهلاً ..

مذهلاً ، وبالغ الخطورة ، إلى حد مستحيل ..

بكل المقاييس ..

* * *

انتهى الجزء الثالث بحمد الله

ويليه الجزء الرابع والأخير بإذن الله

(محيط الدم)

رقم الإيداع : ٣٦١٩